

# الحاكمية

محمد أبو القاسم حاج حمد









محمد أبو القاسم حاج حمد

# الحاكمية

مراجعة وتحقيق  
محمد العاني



بيروت - لندن







## المحتويات

|    |       |
|----|-------|
| ٧  | تصدير |
| ١١ | مقدمة |
| ٢٧ | مدخل  |

### الفصل الأول:

|    |                  |
|----|------------------|
| ٣٧ | الحاكمية الإلهية |
|----|------------------|

### الفصل الثاني:

|    |                  |
|----|------------------|
| ٦١ | حاكمية الاستخلاف |
|----|------------------|

### الفصل الثالث:

|    |                       |
|----|-----------------------|
| ٦٩ | حاكمية الكتاب البشرية |
|----|-----------------------|

### الفصل الرابع:

|    |                        |
|----|------------------------|
| ٨٣ | خصائص الحاكمية البشرية |
|----|------------------------|

### الفصل الخامس

|     |  |
|-----|--|
| ١١٥ | الحاكمية البشرية ومقدمات الحضارة البديلة |
|-----|--|



الفصل السادس:

- الحاكمية البشرية والخطاب الثلاثي «الناس - المؤمنون - المسلمون» ١٢٩
- فهرس الأعلام ١٤٥
- فهرس المصطلحات ١٤٧



## تصدير

كتاب الحاكمية للمفكر الأستاذ محمد أبو القاسم حاج حمد، هو من الكتب التي لم تنشر سابقاً، والتي تولّت مؤسسة الدراسات الفكرية المعاصرة نشرها.

وإن لمن دواعي سروري أن أقدم لهذا الكتاب الذي طرح فيه الأستاذ حاج حمد موضوعاً في غاية الأهمية، وهو وضع النقاط على الحروف في ما يتعلق بموضوع الحاكمية، حيث طُرِحَ هذا الشعار أخيراً على أنها حاكمية تشريعية سماوية مقابل الحاكمية الإنسانية الوضعية، أي إن الشريعة الإسلامية وُضعت في مواجهة مع النظم الديمقراطية وخيارات الإنسان التشريعية (البرلمانات)، ما أنتج حالة مأساوية وضعت الإنسان في حيرة لا لزوم لها، فإما حاكمية الله دون برلمانات وانتخابات، وإما البرلمانات والانتخابات، وبالتالي إلغاء حاكمية الله. فأفضى ذلك إلى أن أصبح الخيار الإنساني التشريعي معصيةً لله وكفراً حسب قول أصحاب شعار الحاكمية الإلهية.

لقد دخل الأستاذ حاج حمد إلى الحاكمية من مقام الربوبية لا من مقام الألوهية، موضحاً أن الله في حاكميته يتدخل من مقام الربوبية حيث لا تشريع ولا وصايا، وإنما فعل مباشر، أي إن التدخل الإلهي كان رحمانياً، وكما ورد في قوله تعالى: ﴿وَرَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَلِكُ مِنْهُ خِطَابٌ﴾ [التين: ٢٧]، فالله حسب التنزيل الحكيم فضّل بني إسرائيل على العالمين بأن تدخل تدخلًا مباشراً ومحسوساً لنصرتهم والدفاع عنهم، وإن عددنا الأحداث المادية الرحمانية مع بني إسرائيل المذكورة في التنزيل الحكيم وجدنا منها الكثير: الطوفان، الجراد، القمل، الضفادع،



الدم، الرجز، اليد البيضاء، العصا، شق البحر، فتح الجبل، البقرة، إنقاذ موسى من اليم وهو طفل، انبجاس الماء، وهبهم مشارق الأرض ومغاربها التي بارك فيها، ثم أعطاه الوصايا العشر على ألواح.

كل هذه التدخلات التي نقول عنها الآن معجزات، حصلت لإنقاذ بني إسرائيل وهلاك فرعون ووهبهم الأرض المباركة، وبهذا ميزهم الله على العالمين، وبهذه الأحداث نتفهم حاكمية الله، ولكن من مقام الربوبية، أي حصل التصرف بقوانين الطبيعة لمصلحة موسى وبني إسرائيل، وبذلك فإن بني إسرائيل لم يفعلوا شيئاً، فقد تدخل الله بالأحداث مباشرة لا بنحو غيبي غير مباشر كما نفهمه الآن.

وبما أن الله تدخل مباشرة في كل تفاصيل نصرتهم والدفاع عنهم، فقد طالبهم بشريعة قاسية مليئة بالإصر والأغلال، أي إنه أعطاهم وحارب عنهم ولكن طالبهم في المقابل بشريعة عقوباتها قاسية، ويكفي أن نورد قوله تعالى عن الحوارين عندما طلبوا من عيسى أن ينزل عليهم مائدة من السماء فاستجاب لهم ربهم ولكنه حذرهم بقوله ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِيثَاقِهِ مِنْكُمْ فَأُولَٰئِكَ أَعَذِبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٥].

فالشريعة الموسوية المؤلفة من ٦١٣ بنداً تشريعياً هي شريعة قاسية فيها إصر وأغلال، شريعة عينية غير صالحة لأهل الأرض ولا تصلح لكل زمان ومكان، وإنما كانت صالحة في مرحلة تاريخية معينة لمجتمع لم يكن قد بلغ مرحلة الرشد العقلي بعد، لذا فهي شريعة عينية فيها بنود كثيرة. أما الفرقان (الوصايا العشر) فهي أخلاق وقيم وليست شريعة. ثم جاء عيسى من بعده ليخفف عنهم البعض منها.

بعد ذلك جاءت الرسالة المحمدية المجردة، لتحدد للإنسانية مستقبلها التشريعي، خالية من الإصر والأغلال وخالية من ظواهر المعجزات تماماً، أي ليس فيها أي شيء مشابه لشريعة موسى. وقد أصر العرب على الرسول (ﷺ) أن يأتي بمعجزات مادية، وأصر التنزيل الحكيم في المقابل على الرفض، فحفر الخندق بالفأس وهو عمل إنساني



تصدير

بحث، لا يضرب العصا، أي إن الرسالة والنبوة للرسول محمد (ﷺ) هما إيدان  
بحاكمية الإنسان تماماً وبلوغه مرحلة الرشد في التعامل مع المحيط، وفيها تكمن  
الخاتمية. لذا نرى أن حاكمية الله بالمفهوم التشريعي قد وُضعت مقابل العلمانية بطريقة  
قسرية تماماً.

إنني أرى أن الأستاذ حاج حمد قد وُفّق في أطروحته في شرح حاكمية الله على  
أنها حاكمية من منطلق الربوبية، ولا علاقة لها بقانون ولا بشرية، وبالتالي تنتفي هذه  
المواجهة غير المبرّرة بين الحاكمية الإلهية (المرحلة التاريخية) والحاكمية البشرية،  
ونأمل أن يعي المؤمنون مسؤوليتهم الحضارية وأهليّتهم للتشريع التي جرت تعميمها  
بمنطق قصور العقل وتدني الأهلية العقلية، لذلك أرى أن هذا الطرح مفيد للقارئ  
وضروري في المرحلة الراهنة.  
والحمد لله رب العالمين.

دمشق في ١٤/١٢/٢٠٠٩

الدكتور محمد شحرور







## مقدمة

إنه لشرف عظيم لي أن أضع مقدمة لكتاب الحاكمة للمفكر السوداني الفذ محمد أبو القاسم حاج حمد (رحمه الله)، فهو من المفكرين الذين تركوا منهجاً فكرياً متميزاً وفريداً في دراسة القرآن العظيم وتدبره. عندما حصلت على كتابه العالمية الإسلامية الثانية عام ١٩٩٧، وجدت فيه نوعاً من الكتابة لم ألقه من قبل، فأعدت قراءته مرات عديدة، فكنت في كل مرة أكتشف فيه معاني ومواضيع لم أنتبه إليها في المرات السابقة. ذلك أن الحاج حمد تعامل مباشرة مع القرآن دون حاجة إلى وسائط في ذلك، وهذه أولى ميزات أسلوبه، وخاصة أننا ألفنا الأساليب الكتابية، حتى التجديدية منها، التي تحاول تلمس شاهد من تفاسير السلف أو المجددين المعاصرين عند تعاملها مع القرآن طمعاً في أن تنال فكرتها مشروعية ما. أما في مؤلفات الحاج حمد جميعها فلا نكاد نجد هذا الأسلوب على الإطلاق، بل نجده يتعامل مع القرآن بأريحية تامة وثقة وجرأة مطلقتين. بالإضافة إلى ذلك فإن الميزة الثانية في أسلوبه تتمثل في تفاعله مع القرآن بأسلوب معرفي راقٍ جداً وعميق، وهذا ما دفعني إلى البحث في فكره ومتابعة كل جديد له، فقد كان له الفضل في تحفيزي على التوجه لكتاب الله وتدبره ومسائلته ومحاورته، كما كان له الفضل في دفعي نحو قراءة للعديد من المفكرين الذين كنت أضع الحواجز بيني وبينهم بفعل سلطة الموروث في ذهني، أمثال كتب د. محمد شحرور والبروفسور محمد أركون وغيرهما الكثير.



لقد علمت من الحاج حمد كيف يكون كل من العلم والمعرفة مدخلاً للنظر في القرآن، وكيف تكون بينات الوجود والسير والبحث في كتب الذين ساروا في الأرض من علماء الطبيعة والآثار والتاريخ والفلسفة هي أدوات ومناهج لفهم القرآن. وأثناء متابعتي لأعماله اهتمت إلى الاتصال به هاتفياً في عام ٢٠٠٤ قبل وفاته بحوالي ستة أشهر، وأرسلت له عبر الإيميل بعض الدراسات التي أنجزتها في ضوء تطبيقي لمنهجه. وسرّني كثيراً تشجيعه ودعمه لي بعدها واهتمامه بجيل الشباب من أمثالي، فكانت شهادة فخر لي أن أعرب عن تطلّعه لعمل مشترك في مشروع «معجم دلالات ألفاظ القرآن الكريم»، لكن المنية وافته قبل أن يتحقّق ذلك، فله الأمر من قبلُ ومن بعد. لقد ترك المرحوم محمد أبو القاسم حاج حمد إرثاً فكرياً مطبوعاً لا يمكن تجاهله عند التطرّق إلى دراسة مناهج القراءات المعاصرة، وكان همّي وهمّ العديد من تلاميذه بالارث منصّباً على الجانب غير المطبوع من إرثه خوفاً من تناسيه أو ضياعه، وخاصة أنه لم يكن لنا علم بما هو موجود سوى أنه كان يعمل على مؤلّفه موسوعة الدينونة، ولم نكن ندري هل انتهى منه أم لا، ولكن أقدار الله شاءت أن تتبنّى مؤسسة الدراسات الفكرية المعاصرة طباعة أعماله غير المنشورة وإعادة طباعة المنشور منها.

فقد أتاحت لي المؤسسة، بعد خمس سنوات من وفاة الحاج حمد، فرصة العمل مع الدكتور محمد شحرور، وكانت فرصة ثمينة بالنسبة إليّ لما يمثله الدكتور شحرور من قيمة فكرية ومكانة في حقل الدراسات المعاصرة، وكانت أيضاً فرصة كي يكون فكر الحاج حمد أحد المحاور الهامة التي تبني الهيكل الفكري والمعرفي للمؤسسة، وليكون الدكتور شحرور من القائمين على هذا العمل إشرافاً ودعمًا، وخصوصاً بعدما صارحتني بقوله إن أطروحات الحاج حمد مهمة وإنه سيدعم نشرها وفاءً وتقديراً لمجهودات الرجل. لقد قال ذلك رغم أنه لم يلتق بالحاج حمد ولم يقرأ له سابقاً ولم تربطه به أية صلة، ولكن ما وجدته بعد اطلاعه على بعض مؤلفاته هو مفكر في حوزته



ما يقول وما يفيد به القارئ، فلم يتوان عن إبداء استعداداته لدعم نشر مؤلفات الحاج حمد. فجاء هذا الكتاب كأول عمل للحاج حمد تدعمه وتنشره المؤسسة وعلى رأسها الدكتور شحرور، الأمر الذي جعلني أشعر كأنه عاد من جديد ليحيا بين تلاميذه ومحبيه وليتعرف عليه من لم يعرفه قبل ذلك، فكل الشكر للدكتور محمد شحرور وللمؤسسة الدراسات الفكرية المعاصرة على ما بذلوه في سبيل تحقيق ذلك.

قبل الدخول في موضوع الكتاب، لا بد من أن نكشف عن أمر مهم بخصوص موسوعة الدينونة، حيث إننا لم نجد من أجزاءها سوى ثلاثة أجزاء قد تخرج بمجلدين أو ثلاثة، وبقي السؤال: هل ضاعت باقي أجزاء الموسوعة أم أن الحاج حمد لم يكمل العمل فيها؟

من خلال اطلاعي على رسائل حاج حمد، التي حصلنا عليها في المؤسسة ضمن مجموعة كبيرة من المؤلفات والمقالات من حرمة السيدة دينا الأمين أبو نايب؛ وجدت رسالة منه لسماحة الإمام محمد مهدي شمس الدين بتاريخ ٢٦/١/٢٠٠٠ يبين فيها أن الموسوعة عبارة عن ١٥ جزءاً، يمثل مجلداً العالمية وكتاب منهجية القرآن المعرفية الأجزاء الثلاثة الأولى، والجزء الرابع هو فواتح السور وهو موجود كمخطوط، ودلالات ألفاظ القرآن الذي من خلال رسالته لي عام ٢٠٠٤ أي قبل وفاته، أعلمني بأنه لم يكن قد شرع العمل فيه بعد. ثم هناك عشرة أجزاء هي التحليل المنهجي للقرآن وهذه موجود منها جزآن اثنان.

فهناك إذاً ثمانية أجزاء - إضافة إلى المعجم - غير موجودة بشكل واضح، وأكرر غير موجودة، بشكل واضح، إذ إننا وجدنا في مخطوطات الحاج حمد حوالي عشرة أعمال غير مطبوعة ربما تمثل في مواضيعها مادة الأجزاء الثمانية، والموسوعة ككل تمثل مادة معجم دلالات الألفاظ. فلقد عثرت بين أوراقه على ورقة مكتوبة بخط يده ذكر فيها أن الموسوعة سيجري العمل عليها وفق خيارين. الأول: المواضيع التي



تغطّيها الأحرف الأربعة عشر؛ وذلك بالدمج بين فواتح السور والقرآن في وحدته العضوية والمنهجية، والتي ستنتشر المؤلف الخاص بها مؤسسة الدراسات الفكرية لاحقاً. والثاني؛ طبقاً للموضوعات (التشريع العائلي، حرية الإنسان والتأسيس القرآني، موضوعات ترشيد الصحوة، الحاكمية، والمحاضرات والندوات).

هذه المؤلفات السابقة، التي تحدّث عنها كلّها موجودة كمخطوطات، ما يؤكّد أن المادة الرئيسية للأجزاء التسعة الباقية من موسوعة الدينونة موجودة. لكن لم يتمّ تحريرها وربطها بعضها ببعض وصياغتها بشكل كلي. لذلك سوف تُنشر هذه المؤلفات كما هي بعد تحقيقها ومراجعتها، تاركين ضمّ الموسوعة بعضها لبعض وربطها لعمل لاحق، أسأل الله أن يقدّرنا على القيام بذلك وفاءً لهذا المفكر العظيم.

لقد كشف الحاج حمد عن حيوية القرآن الكريم وقدرته على التفاعل مع الأنساق الحضارية المختلفة وساعدنا على إزالة الكثير من العوائق التي كانت تقف بيننا وبين القرآن، مقدّماً لمنهج يكشف الباحث فيه عن مدى الترابط بين عناصره ومقدماته ونتائجه، وإن لمن المؤسف شيوع الكثير من الدراسات والمقالات التي يتردّد فيها استخدام مصطلحات حاج حمد، مثل الجمع بين القراءتين، والقرآن كمعادل موضوعي للوجود، وغيرها من المفاهيم التي ركبت على منظومات سلفية التفكير أفرغتها من مضمونها وحمولتها الفكرية. وبالتالي، لم يعد لها قيمة معرفية كاشفة، ومؤولة للنص القرآني.

وسأخذ مثلاً على ذلك مفهوم الجمع بين القراءتين (وهو أهم مداخل الحاج حمد المنهجية)، وهو مدخل منهجي يتطلب تحصيل العلم شرطاً رئيساً لفهم جريان سنة الله في خلقه. فقد طلب الله من الرسول قراءتين ﴿اقْرَأْ بِآيَاتِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [علق: ١-٢]. وهي قراءة تتعلق بفهم قدرة الله المطلقة في الكون وغاية الخلق عبر فهم سيرورة وحيرورة تطوّر الإنسان من علة إلى كائن عاقل واع. وهذه



لا تكون دون علم في البيولوجيا، والجيولوجيا، والفيزياء، والأركيولوجيا، وغيرها من العلوم.

وقراءة ثانية ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ \* الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿[المعلق: ٣-٤] .

وهذه قراءة، بمعية الله الأكرم بما وهب الإنسان من قدرات، وإمكانات للسير والبحث، والكشف في العالم الموضوعي، وبما وضعه في عالم المشيئة من إمكانات مفتوحة على العلم والكشف.

فالقراءة الأولى قراءة متعلّقة بقدرة الله، ومتجاوزة للواقع الموضوعي، أما القراءة الثانية فقراءة قائمة على العلم الموضوعي، وهكذا فإن القراءة الأولى لا يمكن الكشف عنها ولا إدراكها دون الاستعانة بالقراءة الثانية. وتتضح الفكرة أكثر، من خلال النظر في الخلفيات المعرفية للجمع بين القراءتين عند حاج حمد، حيث يقول في كتابه منهجية القرآن المعرفية:

«إن الجمع بين القراءتين يعتمد على الربط بين القرآن بوصفه محتوى الوعي المعادل للوجود الكوني وحركته» \* فماذا يعني القرآن بوصفه المعادل الموضوعي للوجود وحركته؟

في محاضرة له ألقاها في هيئة الأعمال الفكرية في السودان عام ١٩٩٧ يقول الحاج حمد: «غير أننا حين نأتي لدراسة القرآن من خلال فرضية أنه معادل بوحيه - بمادة الوحي المضمنة فيه - مطلق الوجود الكوني (معادل موضوعي) يجب أن نعيد قراءة القرآن بنفس الفهم المنهجي والعلمي الذي قرأنا به من قبل وإدراكنا به مطلق الكون - بين الكون المحدد بالقواعد العلمية والكون اللامتناهي في الخلق والصورورة - ونعيد به قراءة الإنسان اللامحدود في فكره وتأملاته». بناءً على ما سبق فإن كلاً من

\* منهجية القرآن المعرفية، دار الهادي، ص ١٧٧.



القرآن والوجود متشبهان بالكيفية نفسها. والمعادل الموضوعي هو العائد المرجعي لدلالة الكلمة في القرآن، التي ترقى، أي الكلمة، إلى درجة المصطلح؛ حيث يقول في المحاضرة السابقة: «المدخل التركيبي: أن يأخذ آيات الكتاب كوحدة عضوية واحدة من الفاتحة وحتى المعوذتين، وألا يأخذها مجزأة، ولا بد أن يعتمد في ذلك على الاستخدام الإلهي للغة متجاوزاً الاستخدام البلاغي وحالة النسخ والمترادف والمشارك والمتشابه، وبذلك يمكن الوصول إلى كونية القرآن».

لقد بين الحاج حمد هذه الفروق في الكثير من دراساته وكتبه كالفرق بين مسّ ولمس، وبين النزول والهبوط، وبين النظر والرؤية... وغيرها. فهناك عائد معرفي للمفردة القرآنية، وهذه المعرفة تنتفي إذا ما أرجع مدلول الكلمة القرآنية على البلاغة الشعرية والبيانية، ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ [يس: ٦٩].

إن حالة مدلول الكلمة على أمثلة شعرية ونثرية لها سياقها الخاص المرتبط بنفسية ومشاعر القائل ومرتبطة بالمخزون الثقافي للمحيط، لا تعطي فهماً علمياً ومعرفياً للقرآن، وتحيله إلى جزر معزولة لا يمكن إيجاد الترابط بين مواضيعه كما هي حال التفاسير التراثية التي بين أيدينا اليوم. ومهما ادّعى البعض، وإن كان مخلصاً في ادعائه بوحدة القرآن العضوية وبكونيته وبمنهجيته، فإن ادعائه لن يتحقق إن استمر بتناول القرآن بأسلوب بلاغي شعري، فالعلم والسير، والبحث في السنن الكونية؛ هي الطريق الأمثل إلى تأويل القرآن وعالمية رسالته.

أما الحالات النفسية للشاعر والكتاب فلا تعادل موضوعياً الوجود الكوني، وليس لها أي عائد معرفي ومنهجي. لذلك لا بد من تحديد مدلول المفردة من داخل القرآن نفسه بالجمع بين الجانبين الألسني والتحليل العضوي لكلية القرآن، وهنا يكمن الفرق بين الاستخدام الإلهي للمفردة والاستخدام البشري لها كما يرى الحاج حمد.



إن هذا الأسلوب التحليلي للقرآن الكريم المبني على الوحدة العضوية لكلية الكتاب يعتمد على مدى قدرة الباحث على التحليل، ثم التركيب، ابتداءً من الوحدات الصغرى (الألفاظ) نحو السياقات الكبرى. كما أن التفكيك دون إعادة التركيب، وفق أطر منهجية، لا يعطي قراءة منهجية للنص. وعلى سبيل المثال، فإن قصة موسى مع العبد الصالح<sup>(١)</sup> عند الحاج حمد أعيد تركيبها في إطار تدرج العلاقة الإلهية مع البشر، ثم طُبّق هذا الفهم لجدلية الغيب مع الإنسان، على تفسير وفهم معركة بدر وربطها بمعركة طالوت (راجع كتاب العالمية الإسلامية الثانية، الجزء الثاني)، حيث جرى تحليل هذه الآيات ليصل من خلالها إلى منهج التعامل الإلهي مع البشر بالتدرج من التعامل الحسي المباشر إلى التعامل الغيبي غير المباشر، ثم ربط ذلك بختم النبوة وبمفهوم الحاكمية (وهذا موضوع الكتاب الذي بين أيدينا) وشرعة التخفيف والرحمة. ومن جهة ثانية، فقد وُجّهت هذه الرؤية، حيث إن التحليل والربط لهذه الآيات بناءً على وحدة القرآن العضوية ثم إعادة تركيبها ضمن أطر منهجية يحتاج إلى صبر وتقصُّ و قدرة تفكيكية وتركيبية. إن التفكيك دون إعادة التركيب وفق أطر منهجية لا يعطي نتائج معرفية، وبالتالي فإن هذا التفكيك سيقود في النهاية إلى طرق مسدودة، لأن التحليل ثم إعادة التركيب يتيحان للباحث إعادة وضع هذه الأطر في أطر أكبر منها وصولاً إلى منهجية متكاملة، فهي عملية ارتقاء وتطوير واستيعاب وتجاوز.

وقد يحلو للبعض أن يناقش هذه الجزئيات في طروحات الحاج حمد بناءً على مرجعيته الفقهية والأصولية، دون أن يناقش أسس هذا المنهج التي لا بد أن تصل إلى هذه النتائج. فنجد الكثيرين يحاولون الوصول إلى نتائج شرعة التخفيف والرحمة، ولا سيما في موضوع الحدود والعلاقة مع الأديان الأخرى، وقضايا المرأة، دون أي

(١) للاطلاع على تحليل حاج حمد لقصة موسى والعبد الصالح، رُاجع المجلد الأول من كتاب العالمية الإسلامية الثانية - المجلد الأول - الجزء الثاني - الفصل الثاني.



ضوابط أو أطر منهجية تتناول علاقة النبوات بعضها ببعض، وعلاقتها بالتعامل الإلهي مع البشر وتدرجها، والحكمة من ختم النبوة، فيقع نتيجة ذلك في دائرة التلفيق بلي أعناق النصوص للوصول إلى غايته، واضعاً نفسه على قواعد رخوة سرعان ما تنهار عند مقابلتها مع الأصولية السلفية.

إن موضوع هذا الكتاب، هو دراسة نص بمدخل معرفية تاريخية، وأثروبولوجية، ولسانية، ذلك أن دراسة أي نص تهدف للإمساك بالفكرة التي يتحدث عنها، وذلك بمحاولة الكشف عن الدلالات التي تشير إليها الألفاظ، فكل من النص أو السياق يعطينا نظرة عابرة عن الموضوع الذي يتحدث عنه، أو الإطار المحدد للموضوع الذي يوجهنا للنظر فيه. فعندما يتحدث مثلاً عن الزواج والطلاق والمهور والرضاع، فإننا نعلم أين نتجه في دراستنا، وكذلك عند حديثه عن السماوات والأرض والنجوم والشمس والقمر إلخ...، فإننا نتجه لفهمها من خلال العلوم التي تدرسها وتبحث فيها.

فنحن إذاً أمام عملية تأويل للقرآن الهدف منها تأويل الخطاب القرآني، لذا فإن لدينا مفهومين علينا التركيز عليهما ومناقشة مضامينهما المباشرة وغير المباشرة (الدلالة - النص القرآني)، ويمكننا أن ندخل إلى المضامين عبر هذه التساؤلات: هل هناك دلالة واحدة أم دلالات متغيرة؟

لا بد من أن نشير هنا إلى قضية أخرى هامة لدى الحاج حمد وهي إعادة ترتيب القرآن بكيفية مغايرة لترتيب نزوله، وهذا يعني فك الارتباط بين الواقع الذي نزل فيه القرآن والنص نفسه. وهذا بدوره يدل على عدم حبس دلالات الكلمة بالشروط الفكرية والثقافية لزمن التنزيل. ذلك لأن دلالات الألفاظ ترتبط ارتباطاً مباشراً بالحالة الذهنية والمعرفية للقارئ، وهذا ما أشار إليه بعض السلف وما أثبتته العلوم الحديثة المختصة بعلوم الدلالة والسميانيات، ونقتبس هنا قول ابن جني في كتابه الخصائص في



تعليقه على ظاهرة الترادف: «كلما كثرت الألفاظ على المعنى الواحد كان ذلك أولى بأن تكون لغات لجماعات اجتمعت لإنسان واحد من هنا ومن هنا».

إذاً أحال ابن جني تعدد الألفاظ الدالة على المعنى الواحد لاختلاف الجماعات، أما منقور عبد الجليل فيقول في كتابه علم الدلالة - أصوله ومباحثه في التراث العربي: «ذهب ابن خلدون في سياق شرحه للعملية الدلالية حين قال: «الكلمات المسموعة الدالة على ما في النفس» وأوضح المسألة أكثر، حيث قال: «كما أن القول والكلام بيان عما في النفس والضمير من المعاني»، هذه التقارير تبين إدراك ابن خلدون لأهمية الجانب السيكلوجي في الفعل الدلالي، وقد دأب دو سويسر على التركيز على هذا الجانب في كتابه المحاضرات حيث عرف الدال بأنه الإدراك النفساني للكلمة الصوتية، والمدلول بأنه الفكرة أو مجموعة الأفكار التي تقترن بالدال، باعتبار أن لا علاقة مباشرة بين الاسم ومسماه، إنما العلاقة المباشرة تربط الدال بالمحتوى الفكري الذي في الذهن». أ. هـ. ويقول الجاحظ: «قال بعضُ جهايزة الألفاظِ ونُقَادِ المعاني: المعاني القائمة في صدور الناس المتصورة في أذهانهم والمتخلجة في نفوسهم والمتصلة بخواطيرهم والحادثة عن فكرهم مستورة خفية وبعيدة وحشية محجوبة مكنونة» (البيان والتبيين ج ١).

بناءً على المقدمة السابقة فإن مدلولات الألفاظ لدى العربي كانت تحمل حالته الثقافية والذهنية، وبالتالي فعندما تتناول القرآن بناءً على المرجعية الناجزة الموروثة لمدلولات ألفاظ القرآن؛ نكون قد جعلناها محكومة بخزان ثقافي محدود وبيئة ثقافية واجتماعية لها شروطها الذاتية، وبذلك يصبح العائد المعرفي للمفردة هو السياق الثقافي، والاجتماعي، والسقف المعرفي للمفسر أياً كان. أضف إلى ذلك، كيفية تناول المفردات بناءً على القواعد البلاغية للشعر وما تحتويه من مترادف ومشارك ومجاز وغيره.



الأمر الثاني: أننا لو افترضنا أن دلالة اللفظ لدى العربي في ذلك الوقت هي الدلالة الصحيحة فهذا يعني أن العربي قد استوعب إطلاقية القرآن. أو أن نسلم مع القائلين بأن النص القرآني هو منتج ثقافي اجتماعي لأهل الحجاز في القرن السابع الميلادي. فكلاهما، السلفي والملحد، يريان في هذا النص كتاباً أغلق فهمه على مرحلة معينة. ففيما يريد السلفي العودة بالمجتمعات إلى الوراء ليحكم الواقع الحالي بهذا الفهم الماضي، نجد الملحد رافضاً هذا النص ليتمكن من السير نحو الأمام. لذا فإننا نأسف على أن الإلحاد العربي لا يقوم على أي أسس ومنطلقات معرفية وفلسفية وعلمية، وإنما على موقف ذاتي من الموروث الديني الذي يبنى إطاره الفكري والثقافي على تبيت مصداقية الموروث كشارح ومفسر للنص. ونتيجة لذلك لا يجد لنفسه خطاباً عندما نرفع هيمنة الموروث الديني وقديسيته عن النص القرآني.

إن المنطلق الإيماني بأن القرآن نص غير بشري؛ يقودنا إلى أن الأدوات الإجرائية المتبعة للإمساك بفكرة يتحدث عنها نص بشري، لن تكون نفسها الأدوات الإجرائية المتبعة لفهم النص القرآني، للاختلاف الجذري في ماهية النص القرآني عن النص البشري. فبما أنه نص لا يمكن الإنس ولو تظاهرت معها الجن أن يأتوا بمثله <sup>(٢)</sup> لَئِنْ أَخْسَعَتِ الْآلِهَةُ عَلَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بِبَعْضِهِمْ يُقَيِّنُ ظَهْرًا ﴿[الإسراء: ٨٨]﴾، فذلك يعني أن بنية القرآن لا<sup>(٣)</sup> تخضع لقوانين إنتاج النصوص البشرية، لأن له قوانين إنتاج مختلفة. وعلى هذا الأساس، فإن الأدوات الإجرائية التي تبحث في فهم دلالة النص البشري، والمرتبطة بقوانين إنتاج النصوص البشرية، والمستنتطة منها، لا يمكن أن نطبقها على النص القرآني للاختلاف في ماهية النصين. إن النص القرآني ذو تركيب نسيجي، والكلمة في القرآن كالعنصر في التفاعلات

(٢) إعجاز القرآن برأي الدكتور شحرور هو أنه نص جمع دقة نيوتن، وجمالية شكسبير، ومصداقية قوانين الطبيعة. وهذه الصفات لا توجد إلا في نص التنزيل الحكيم.



الكيميائية، ذات خصائص ثابتة (مدلول ثابت) ولكن يولد من تفاعله مع باقي العناصر نتائج لامتناهية من التراكيب، فارتباط الكلمة في القرآن بسياقاتها الصغرى والكبرى، يعطي نتائج مركبة وغنية، والأمر يرجع للإنسان المتدبر ومدى قدرته على معرفة المراد من النص، من خلال تدبره للكلمات المتجاورة في الآية والاقترانات اللفظية وعله ربط آيات معينة في سورة معينة. فتلك عملية غنية جداً تبدأ من ضبط معنى الكلمة من خلال رصد مواقعها في القرآن وبلاستفادة من مناهج علوم الدلالة في ذلك، ثم فهم دلالات الآيات من خلال سياقاتها الصغرى والكبرى ومناهج العلوم الحديثة (علم النفس والاقتصاد والاجتماع والأنثروبولوجيا إلخ....). ولذلك فإن القضية ليست ألسنية بحتة وإنما هي جمع بين الجانب الألسني، والجانب التحليلي لكلية القرآن الكريم المأخوذ كوحدة عضوية واحدة، وبمداخل علمية ومعرفية.

لقد أدى المنهج البلاغي في تناول القرآن الكريم الى تدمير داخلي للنص نفسه، حيث أحييت دلالات الألفاظ الى المخزون الثقافي للعرب، وما يحتويه من مترادف، ومشتراك، ومجاز وغيره. فخرج النص بتأويلات وتفسيرات متعددة، وساعد على ذلك الأسلوب التعضيبي للقرآن، ونقصد بذلك فصل الآيات عن سياقاتها الكلية، لكن هذا الفصل يناقض مبدأ هاماً هو إعادة ترتيب الآيات وفق الوحي الإلهي - كما ذكرنا سابقاً، حيث إن لإعادة الترتيب أهمية كبيرة تجعل من القرآن مفارقاً لشروط وظروف إنزاله، وتجعل من السياق الكلي للقرآن أهمية كبيرة في تحديد مدلول المفردة القرآنية. إن ضبط مدلول المفردة القرآنية يحتاج إلى جهد كبير يستدعي الكثير من الألفاظ الأخرى والآيات والمواضيع، وبعد ذلك لا يصبح السياق الأصغر هو الضابط للمعنى بل يصبح معنى المفردة المحدد من خلال السياق الأكبر هو الضابط للسياق الأصغر، فالمفردة هي التي تضبط وتوجه معنى الآية وليس العكس. ذلك أن دلالة المفردة في القرآن تحدد من خلال شبكة العلاقات، والاقترانات مع المفردات الأخرى، ما



يستدعي أحياناً مفردات كثيرة جداً، الأمر الذي يدفع باتجاه تحليل هذه المفردات بدورها. فهي بذلك عملية متشعبة، لذا فمن الخطأ البحث عن دلالة المفردة القرآنية بإخراجها إلى سياقات أخرى كاستحضار بيوت الشعر التي لها مساقاتها الخاصة وبنائياتها المختلفة، فالمفردات في الشعر والنثر العربي ليس لها عائد منهجي أو معرفي، لأنها تأملات وحالات نفسية يعيشها الشاعر أو الكاتب، فيما المفردة القرآنية تمثل اللبنة الأساسية للهيكل المعرفي الذي يمكن أن نستنبطه من القرآن الكريم.

لا يمكن، والحال كذلك، لأداة معرفية واحدة أن تفسر القرآن كما لا يمكن لأداة علمية أو معرفية واحدة أن تفسر الوجود، فتفسير القرآن هو تفسير للإنسان والوجود، فهل تستطيع أداة معرفية واحدة أن تفسر الإنسان فضلاً عن تمكّنها من تفسير ما هو أكبر خلقاً - الكون -؟ من هذا المنطلق تحدث الحاج حمد عن استيعاب هذه العلوم وتجاوزها والربط في ما بينها، لأن محاولة تطبيق أدوات معرفية معينة على النص القرآني تسلب النص القرآني أبعاده وإطلاقيته. لذا لا بد من تضافر مناهج علمية شتى لتفسير وفهم النص القرآني، فإذا أتينا إلى محاولات قراءة النصوص وفهم الكون نجد أن مناهج المعرفة تتداخل وتشابك في ما بينها، لذلك انبثقت رؤى جديدة متمثلة بالبينمناهجية وتعددية المناهج والعبر مناهجية، فموضوع كاليبرالية مثلاً لا يمكن دراسته من زاوية واحدة بل لا بد من تضافر عدة مناهج وعدة معارف لدراسته كعلم النفس والاقتصاد وعلم الاجتماع الخ. كذلك هناك نقل الطرائق بين المناهج كنقل طرائق الرياضيات إلى الفيزياء فينشأ علم جديد يسمّى الفيزياء الرياضية، أما العبر مناهجية فإنها تعنى بدراسة الدينامية المتولدة بفعل عدة مستويات للواقع وهي تعدد المناهجية وغايتها وتغذي منها وتتكامل معها.

لقد فرضت تطورات العلوم وتعدّد المناهج رؤية إستمولوجية جديدة، والأمر راجع حسب رأيي إلى العمق العلمي الذي وصلت إليه البشرية إلى حد أصبحت فيه



اللغة الكلاسيكية للمعرفة غير قادرة على تفسير الوجود وهذا يعود إلى: تركيبة الكون المعقدة والمتشابكة، كل هذه الظواهر إنما تبين بشكل واضح وصارخ عدم تمكن أداة معرفية محددة من امتلاكها الكفاية التفسيرية والتحليلية لفهم العلاقة بين القرآن الكريم والكون. فالقرآن الكريم كتاب مركب بتركيب متمائل مع تركيب الكون، ولو لم يكن بناؤه مماثلاً للبناء الكوني لما كان يمكن أن يحتويه، والبناء الكوني معقد في تركيبه، وفي العلاقات التي تربط بين مختلف ظواهره، فهناك نسيج متشابك ودقيق، وقراءة ظواهره بمعزل عن بعضها، وبنحو مجزأ، تعطي رؤية مغلوطة وخاطئة تؤدي في نهاياتها إلى تفكيك الإنسان معرفياً، ونفسياً، وأخلاقياً. وبالتالي، تفكيك المجتمعات بحكم أن الإنسان مخلوق من رحم هذا الكون. كذلك فإن قراءة القرآن بطريقة مجزأة تؤدي في نهايتها أيضاً إلى انفلات ضوابط الفهم القرآني، وشيوع الفهم المختلفة والمتباينة، التي تستطيع أن تشرع لأي منهج أو حزب أو طائفة، فالقراءة القرآنية المجزأة تحمل في طياتها بذور الفتنة والصراع، إما بأن يخطر الإنسان المسلم في هذه الصراعات أو ينحصر إسلامه في المسجد، أو يجد حلاً توفيقياً بين هذا وذاك، فيصبح عاجزاً عن الفعل الحضاري. لذا فإن العلاقة بين الإنسان والقرآن والكون علاقة متداخلة ومتشابكة، والخلل في قراءة القرآن أو الكون سيرتد على الإنسان بطريقة مأساوية.

إن الاتصال والانفتاح بين المنظومتين (الإنسانية والكونية) أمر واضح وجلي في القرآن، فنجدته ينتقل من الحديث عن آية اجتماعية إلى الحديث عن آية كونية، ومن آيات تحدث عن حدث تاريخي، إلى آيات تصف وتبين حدثاً كونياً، ويمثل الإنسان بجملته معارفه وقلقه وتساؤلاته، حلقة الوصل بين العلم الموضوعي، والنص القرآني. ومن ثمَّ يصير بفؤاده هدي القرآن للتي هي أقوم، ويعلم كيف يكون هدى وبصرة، وذكرى للعالمين. نعود إلى هذا المؤلف الحاكمية الذي هو إحدى مواد موسوعة الدينونة حيث إن قراءته تربط بمنهجية الحاج حمد التحليلية ونظراته للتاريخ التي تتألف من ثلاث دورات:



# ١ - العائلية (آدم)

## ٢ - القبلية (من نوح حتى عيسى)

## ٣ - العالمية (مرحلة النبوة المحمدية وما بعدها)

حيث يعاود الإنسان بالوعي اندماجه في الرحم الكوني عبر هذه الثلاثية الحضارية التي تتسم كل منها بمنهج يتفاعل من خلاله الغيب مع الإنسان والطبيعة، ففي المرحلة العائلية والقبلية، يكون تدخل الله مباشراً ومحسوساً أو عن طريق خليفة، بينما مرحلة العالمية ينتهي عندها التدخل الإلهي المباشر، وتفتح فيها الحاكمية البشرية من خلال الكتاب المنزل على محمد (ﷺ). فحاكمية الله هي ما يحكمه الله من أمر (اقتصادياً وثقافياً واجتماعياً وجغرافياً) فلا وجود للصدفة في تدبير الأمور، وهي بذلك ليست حاكمية قانونية وتشريعية لا ظروف تسمح بموضعها في المجتمع، وإنما حاكمية لها شروطها وظروفها التاريخية، وسننها، التي خلت وانتهت. وهذا الإحكام لا يستلب حرية الإنسان، ولا يقف في مواجهة خياراته وإنما يدفع بالفعل الحضاري للإنسان على قاعدة التسخير. لأنه حين كان الإنسان في مرحلته البدائية ووعيه الحضاري المرحلي؛ كان التدخل الإلهي المباشر ضروري ليدفع بفعل الإنسان المؤمن، ويقف معه في مواجهة قوى الإفساد والطغيان، أما بعد نضوج الإنسان واكتمال أهليته للتعامل مع الطبيعة، فيرتفع التدخل الإلهي المباشر ويُنسخ بمنهجية جديدة للتعامل مع الإنسان والطبيعة، عبر قوانين عالم المشيئة، وعبر الدفع بالنزعة العلمية. لكن القراءة المغلوطة للقرآن هي التي وضعت القدرة الإلهية في مقابل الفعل الإنساني، بينما يرى الحاج حمد أننا يجب أن نفجر حرارة النزعة العلمية في إنسان الحضارة البديلة، التي يهدينا كتاب الله فيها إلى وضعها في اتجاه الإرادة الإلهية القائمة على وحدة الطبيعة والدخول في السلم من خلال حركيتنا التاريخية وفعلنا.

إن العقل الإحيائي الذي وقف عاجزاً أمام ظواهر الطبيعة تطلب تدخلها إلهياً مباشراً



ومحسوساً (المعجزات)، فلم يكن من السهل على الإنسان تقبل فكرة الإله المحتجب فكان فعل الله الملموس استجابة بالحكمة لطبيعة العقل ومرحلته التطورية، وكضرورة مرحلية للانتقال بالإنسان إلى عقلية أكثر تطوراً بعد تثبيت فكرة الله الواحد المهيمن على الحركة التاريخية من خلال توجيهها نحو غائية الاستخلاف وعمارة الكون التي وجد الإنسان من أجلها، والتي لا تتحقق إلا بإدراك الوجود الغيبي وحكمة الخلق. هذه المراحل كانت مقدمات تأهيلية للوعي الإنساني ليعاود فهمه لذاته ووجوده بكيفية جديدة من خلال توجيه النظر وتفجير النزعة العلمية وقدرات الإنسان الكامنة في تسخير الوجود المحيط للدخول في السلم كافة وارتقاء الإنسان حضارياً ومعرفياً وتحقيق العدل والمساواة.

وفيما يذهب الدكتور محمد شحرور في كتابه الكتاب والقرآن ليجيب عن ماهية الآيات (المعجزات بأنها قفزات معرفية)، يجيب الحاج حمد عن سؤال أسباب إعطاء الآيات الحسية (المعجزات) للأنبياء السابقين على محمد (ﷺ) وعلاقتها بالمراحل التاريخية، وذلك من خلال رؤية تربط بين النمط العقلي وطبيعة تفاعله مع الغيب، وبين المرحلة التاريخية وكيفية الاستجابة للرسالات السماوية، فأصبح بذلك مفهوم الحاكمية خارج دائرة الحكم الشرعي الذي يستلزم الإنسان دورة التشريعي وأهليته العقلية في ضبط حراك المجتمع قانونياً، مقدماً مفهوم النسخ في إطار صيرورة الحركة التاريخية وجعلها.

لن نطيل هنا ونترك الكتاب يتحدث عن ذلك بمزيد تفصيل وشرح، مع محاولتنا لتوضيح ما يلزم في حواشي الكتاب، سائلين المولى عز وجل أن يتغمّد المرحوم محمد أبو القاسم حاج حمد برحمته وأن يجعل هذا الكتاب في ميزان حسناته.

والله الموفق.

محمد العاني

٢٠١٠/١/١٥







## مدخل

تستند هذه الدراسة\* إلى مفهومنا الفلسفي للجدلية الكونية الثلاثية التي تتجاوز الفكر اللاهوتي Theology والفكر الوضعي Positivism أيضاً وهي «جدلية الغيب والإنسان والطبيعة»، حيث يتفاعل الغيب الإلهي بكامل مطلقته التي تنكشف عبر الكتاب القرآني الكوني مع مطلق الوجود الإنساني ومطلق الوجود الطبيعي. وهذا ما سبق أن تولّينا شرحه في مؤلفنا العالمية الإسلامية الثانية - جدلية الغيب والإنسان والطبيعة<sup>(١)</sup>.

### الحاكمية الإلهية والجبرية

يقع مفهوم الحاكمية الإلهية GOD Sovereignty في التصنيف الفلسفي ضمن المدارس الجبرية Fatalism اللاهوتية التي تجرّد الإنسان من حرية الإرادة والفعل والقرار وتجعله مستتباً Netation للذات الإلهية.

---

\* دراسة وضعت في إطار المساقات التي كان «معهد الدراسات العليا للمناهج والحضارات والتنسيق الجامعي» The High Institute for the Study of Methodologies, Civilizations and University "Coordination" قد باشر في إعدادها ضمن مرحلته التأسيسية التي كان من المقدّر لها أن تمتدّ إلى سنتين والتي بدأت فعلياً في ٢٣/ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٢م الموافق ١٨ رمضان ١٤٢٣هـ.

(١) العالمية الإسلامية الثانية - جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، كتاب في مجلدين عدد صفحاته ١٠٧٢ صفحة. وهو مبحث فلسفي ومنهجي يهتم بالجانب الاستعمولوجي في المعرفة الإسلامية. وقد دُرّست مادة هذا الكتاب في جامعة القاهرة بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية ضمن مساق الأنظمة العربية في الدراسات العليا عام ١٩٨٢م على يد الأستاذة الدكتورة منى أبو الفضل، وذلك بعد صدور الطبعة الأولى عن دار المسيرة في بيروت عام ١٩٧٩. أما الطبعة الثانية فقد صدرت عام ١٩٩٦ عن «مكتب الدراسات والأبحاث الدولي» International Studies & Research Bureau - British West Indies P. O. Box 70 Grand Turk وتولّت الطباعة دار ابن حزم في بيروت.



وهذه المدارس اللاهوتية الجبرية تماثل في الفكر الوضعي مدارس الحتمية المادية، الطبيعية أو التاريخية، Materialistic Determinism.

وبما أن منهجية القرآن المعرفية والجدلية الثلاثية الكونية «الغيب والإنسان والطبيعة» تقع خارج دائرة هذا النوع من المدارس الجبرية، لاهوتية كانت أو وضعية، فإن ذلك لم يحل بيننا وبين طرح مفهوم هذه الحاكمية الإلهية الجبرية على القرآن لنستبطن منه إلى أي مدى يكون التعامل معها، فهل هي مرفوضة رفضاً مطلقاً أم مقبولة نسبياً؟ وهل هناك دلالة دينية وتاريخية على ممارستها؟

قد لاحظنا منذ البدء أن الذين طرحوا الحاكمية الإلهية بالمنطق الجبري اللاهوتي قد طرحوا كنفيز مكافئ لحاكمية البشر العلمانية Secularism، ومن هؤلاء المفكر الإسلامي الباكستاني أبو الأعلى المودودي (١٩٠٣ / ١٩٧٩)<sup>(٢)</sup> والمفكر الإسلامي المصري سيد قطب (١٩٠٦ - ١٩٦٦) إضافة إلى كتاب آخرين تأثروا بذلك أو بهذا\*.

وليس بالضرورة أن تأتي كل الكتابات تحت مسمى الحاكمية الإلهية، فالبعض من الكتاب الإسلاميين ينحو منحى مختلف لتبني المفهوم وتكريسه وإن بدرجات متفاوتة من القول بجاهلية القرن العشرين إلى تكفير المجتمعات المسلمة وفي الهجوم على كل ما هو غربي.

وكذلك الذين نقدوا مفهوم الحاكمية الإلهية من المفكرين الإسلاميين إنما نقدوا كيفية فهمها لدى الحركات الأصولية التي نعتوها بالتطرف والمغالاة واستلاب دور

(٢) أبو الأعلى المودودي، الحكومة الإسلامية، ط ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م. نظرية الإسلام السياسية، ط ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م. مفاهيم إسلامية حول الدين والدولة، ط ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م. عن الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة.

\* يُعَدُّ أبو الأعلى المودودي أول من صاغ فكرة الحاكمية الإلهية في الإطار السياسي والاجتماعي والقانوني، وقد قام بتوظيف ذلك من أجل بناء نظرية سياسية تقوم على منظومة عقائدية، حيث تتجلى الحاكمية الإلهية في السلطين السياسية والقانونية (المحقق).



الإنسان. وهذا هو موقف الإمام علي بن أبي طالب بوجه «الخوارج» حين التحكيم في معركة صفين (٣٧هـ/ ٦٥٧ - ٦٥٨م) وذلك حين نادوا بأن «لا حُكْم إلا لله» فردّ عليهم بأنها: «كلمة حق يراد بها باطل... نعم إنه لا حُكْم إلا لله ولكن هؤلاء يقولون لا إمرة إلا لله، وإنه لا بد للناس من أمير برّ أو فاجر»<sup>(٣)</sup>.

وقد تعددت الكتابات والدراسات حول موضوع الحاكمية الإلهية، وهي مع كثرتها وتعدّدّها، وتناولها لفكر المودودي بالذات، متماثلة من حيث النقد والبحث في الأصول اللغوية والدينية التراثية للمفهوم. ولم أجد دراسة شاملة لكل هذه الكتابات المتعدّدة أكثر من تلك التي وضعها الأستاذ هشام أحمد عوض جعفر<sup>(٤)</sup> ثم ما كتبه الأستاذ حسين معلوم<sup>(٥)</sup> وكذلك الدكتور محمد عمارة<sup>(٦)</sup> وعن الأخير سنقتبس بعض الفقرات في الفصل الأول. وأظن أنها كافية نظراً إلى اختلاف منهجنا في البحث.

#### اختلاف مدخلنا المنهجي:

لم نستغرق في الاستشهاد بتلك الكتابات إنّ من حيث المعالجات اللغوية أو المعالجات الفقهية للمفهوم، وذلك لاختلاف مدخلنا المنهجي والمعرفي القرآني الذي يخرجنّا عن هذه المجادلات إلى صلب المفهوم في القرآن نفسه، فالمطلب هو

(٣) د. محمد جابر الأنصاري، التأمّز السياسي عند العرب وموقف الإسلام، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط ١، بيروت، ١٩٩٥، ص ١٦٧. النصوص منقولة عن كتاب نهج البلاغة المنسوب إلى الإمام علي بشرح الشيخ محمد عبده، المكتبة التجارية بمصر.

(٤) هشام أحمد عوض جعفر، الأبعاد السياسية لمفهوم الحاكمية، جامعة القاهرة، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م. ملحوظة: قد تسلمت هذه الدراسة وهي في مرحلة مناقشتها للحصول على درجة الماجستير في العلوم السياسية عبر المعهد العالمي للفكر الإسلامي - فرع القاهرة - وهي من أغنى الدراسات المعاصرة التي تناولت هذا الموضوع.

(٥) حسين معلوم، الإسلام والسياسة - الحاكمية لله والإمارة للإنسان والجماعة، الحياة، ٢١ آذار مارس ٢٠٠٠ الموافق ١٥ ذو الحجة ١٤٢٠هـ، العدد ١٣٥٢٣.

(٦) د. محمد عمارة، نظرية الحاكمية الإلهية في فكر أبو الأعلى المودودي، ندوة إشكاليات الفكر الإسلامي المعاصر، مركز دراسات العالم الإسلامي، مالطا، ٢٨/ ٣٠ نيسان/ أبريل ١٩٩١.



استنطاق القرآن حول حاكمية الله - سبحانه وتعالى - ما هي؟ وكيف تكون؟ وعلاقة البشر بها. هل هي هيمنة مطلقة أم نسبية؟ وما هي متعلقاتها؟ فقول الإمام عليّ «الحكم لله والإمارة للناس» يحمل الكثير من الصحة. ولكن ما هو معنى ومضمونه الحكم لله وما معنى الإمارة للناس ومضمونها؟ فالإشكالية بعمقها الفلسفي تظل قائمة إلى أن يحلّها القرآن نفسه. ومن هنا توجهنا إلى القرآن عبر منهجيته المعرفية وعبر الجدلية الكونية الثلاثية.

#### المقابلة غير المستقيمة

إن طرح المقابلة بين حاكمية الله وحاكمية البشر أمر لا يستقيم فلسفياً وفق منهجية القرآن المعرفية وذلك للمفارقة الجوهرية بين الطبيعتين، الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية، فالطبيعة الإلهية أزلية تمارس الحاكمية بأشكال مختلفة طبقاً لمقتضيات مكان الإنسان وزمانه دون أن تسلبه، ودون أن يكون هذا الإنسان مكافئاً لها مهما منحت من حاكمية خاصة به أو سلبته إياها.

غير أن المشكلة الأولى تتأتى حين يتعامل الإنسان مع الحاكمية الإلهية بمفهومه هو عن الجبرية وذلك بالمنطق اللاهوتي الضيق.

والمشكلة الثانية حين يرفض العلّامي الوضعي مفهوم الحاكمية الإلهية وكأنّ الله - سبحانه - يمارسها بطبيعة بشرية وكيفية بشرية منافسة له.

#### دائرتا المطلق: الكون والإنسان

إن الله قد حدّد منذ البداية أن الكون مطلق، لا مُتناهٍ في الكبير ولا مُتناهٍ في الصغر Infinite ومن هنا تنطلق الثورة الفيزيائية الفضائية:

﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ يُخَنِّدُكُمْ فِي مَآكِبِكُمْ لِيُبَدِّلَ أَمْرَكُمْ سُلْطَانَكُمْ لِيُؤْتِيَكُمْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ سُلْطَانًا ۚ وَلَئِنْ كُنْتُمْ إِلَّا كَافِرِينَ﴾



هُمْ يَبْلِغِيهِ فَاسْتَوَىٰ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ هُمُ السَّاجِدُونَ ۖ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٦-٥٧﴾ [غافر: ٥٦-٥٧].

وحدد الله أن الإنسان كائن مطلق ممتد في الزمان والمكان، ما قبل الميلاد وما بعد الموت:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

فكما تسقط الجبرية المادية أمام كون لا متناهٍ مما أدى إلى ظهور النظرية النسبية وعلوم التفكيك Deconstruction والتحليل Analyses، كذلك تسقط الجبرية اللاهوتية ليسترجع الإنسان قدراته الوجودية وحرية وإرادته بحكم تكوينه الكوني المطلق.

فالنفس من الجسد، وقواها الإدراكية العقلية والحسية، وحتى نزوعها المتألق وأحلامها، هي نتائج تخلق كوني «ثنائي» قائم على وحدة المتضادات المتقابلة القابلة للانقسام والتفاعل. وبالتكوين عبر وحدة المتضادات الكونية تتولد النفس التي تمارس في ذاتها ومن عند ذاتها وحدة المتضادات فتكون الإرادة الحرة دون جبرية لاهوتية ودون أن تكون عنصراً بشرياً ينازع الله سبحانه وتعالى\*.

﴿وَالشَّمْسُ وَضَعَهَا \* وَالْقَمَرُ إِذَا لِلنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا \* وَاللَّيْلُ إِذَا يَشْتَبُهَا \* وَالسَّمَاءُ وَمَا بَيْنَهَا \* وَالْأَرْضُ وَمَا لَحْنَهَا \* وَالنَّفْسُ وَمَا سَوَّيَهَا \* فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا \* قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَهَا \* وَقَدْ حَابَ مَنْ دَسَّهَا﴾ [الشمس: ١-١٠].

ففي هذه السورة القصيرة تكشف منهجية القرآن عن الجدلية الكونية لتكوين الإنسان فلا يكون قابلاً لأي جبرية لاهوتية، مادية كانت أو وضعية. فجداية التكوين هنا «ثنائية كونية» حيث تفاعل الشمس مع القمر، وتفاعل النهار مع الليل، وتفاعل

\* راجع في هذا الصدد كتاب منهجية القرآن المعرفية للمؤلف: ص (١٥٦ - ١٦٩)، للوقوف بالتفصيل على رؤيته للعلاقة الجدلية بين النفس والكون (المحقق).



السماء مع الأرض، وعبر هذا التفاعل التخليصي الجدلي الثنائي تتكوّن النفس بكل مطلقها ونزوعها فتأتي حاملة خصائص الثنائية ﴿وَتَقْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾. فالذين اتخذوا الحاكمية الإلهية بمنطق الجبرية الإلهية إنما اتخذوها من عند أنفسهم وجعلوا الخصام ثنائياً بين حاكمتين إلهية وبشرية، والأمر يختلف جذرياً.

### الحاكمية الإلهية، هل هي مجرد تشريع؟

تبدو المجادلات حول الحاكمية الإلهية أكثر وضوحاً حين يمتد الأمر إلى «التشريعات»\* إذ يرى الجبريون اللاهوتيون أن التشريعات الدينية هي دلالة الحاكمية الإلهية مقابل حاكمية البشر الوضعية العلمانية. وهنا يكون الاختصاص! الحقيقة مخالفة لذلك تماماً. فحين تكون الحاكمية الإلهية مرتبطة بالتشريع وبالمنطق الجبري اللاهوتي فإن الله - سبحانه - يعمد إلى أربعة أمور:

أولاً: أن يتولّى بنفسه قيادة المجتمع والمسؤولية المباشرة عنه فلا تكون هناك نيابة عنه ولا أي مؤسسة دستورية أو سياسية ولا ملك ولا رئيس ولكن أنبياء يأخذون بتعليماته اليومية وينفذونها.

ثانياً: أن يمارس خوارق العطاء بالهيمنة على الطبيعة والإنسان فينفلق البحر إذا حوصر شعبه، ويظللّ لهم بالغمام إذا ساروا في الصحراء، ويُنزل عليهم المنّ والسلوى، وينبجس الماء من الصخر. فالحاكمية الإلهية تعني السيطرة على الطبيعة أيضاً.

ثالثاً: أن يحدّد الله لحاكميته أرضاً تكون مقدّسة بحكم ولايته المباشرة عليها وعلى شعبها فلا تكون الحاكمية الإلهية إلا في أرض مقدّسة.

\* المقصود هنا الحاكمية الإلهية بشقها القانوني كما هو عند المودودي، والحاكمية القانونية والتشريعية هي الأصل والأساس الذي يستلزم الحاكمية السياسية (المحقق).



رابعاً: كل خطيئة مقابلها عقاب صارم وفق شرعة أصبر وإغلال، وفي إطار ميثاق وعهد، فالحاكمية الإلهية تكافؤ بين عطاء خارق وعقاب صارم.

متى مارس الله الحاكمية الإلهية؟

ضمن هذه المواصفات مارس الله الحاكمية المباشرة مدة أربعة قرون إذ هيمن على كل الأمور قطعياً وجبرياً بإرادته المقدسة منذ أن أخرج بني إسرائيل من الأسر الفِرْعَوْنِي بعد أن صبّ عذاباته على فِرْعَوْنَ وملاه:

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ ءَايَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

﴿وَأَوْزَنَّا الْقَوَمَ الَّذِينَ كَانُوا يَسْتَظْمِنُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَدَرْنَا فِيهَا وَكَمَتُ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ يَمَّا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

كان الإسرائيليون وهم من أحفاد إبراهيم عليه السلام وابنه إسحق (إسرائيل) وأبوهم المباشر يعقوب قد وفدوا مصر في عهد العرب الهكسوس الذين حكموا مصر منذ سنة ١٧٣٠ ق.م / ١٧٢٠ ق.م. ثم طردهم منها الملك الطيبى أحمس نحو ١٥٦٧ ق.م<sup>(٧)</sup>. وقد تكاثروا الإسرائيليون في مصر منذ أن دخلوها في عهد يوسف عليه السلام وكانت لديه حظوة لدى الهكسوس. فلما طُرد الهكسوس استرقّهم الفراعنة إلى أن أخرجهم الله منها خارقاً لقوانين الطبيعة، فكل شيء تمّ بضربة من عصا موسى، إلى أن أسكنهم مملكته في الأرض المقدسة، ومارس الحاكمية الإلهية بالمواصفات التي ذكرناها بداية من القرن الثالث قبل الميلاد.

(٧) أرنولد توينبي، تاريخ البشرية، الجزء الأول، ترجمة د. نقولا زيادة، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٨، ص ١٣٠.



### من الحاكمية الإلهية إلى حاكمية الاستخلاف

كما يُستخدم تعبير الحاكمية الإلهية جُزْأً ودون البحث في متعلقاتها ودلالاتها الكلية، كذلك تماماً يُستخدم تعبير الخلافة والاستخلاف حتى إن البعض يجنح لتفسير استخلاف الإنسان - أي إنسان - في الأرض واستعمارها لها كدلالة على هذا الاستخلاف. والحقيقة غير ذلك. فللاستخلاف أيضاً دلالاته وخصوصيته، فالناس كلهم مستخلفون في الأرض... نعم. ولكن ليسوا بخلفاء لله، فلخليفة الله متعيناته وشروطه ضمن حاكمية أعقبت الحاكمية الإلهية وهي «حاكمية الاستخلاف» وكانت أيضاً من بني إسرائيل ومورست على عهدي داود وسليمان (من نحو سنة ١٠٠٠ إلى سنة ٩٢٢ ق. م)<sup>(٨)</sup>.

وارتبطت حاكمية الاستخلاف بشرائع الحاكمية الإلهية نفسها ولكن في مقابل «التسخير» الذي شمل الطبيعة والكائنات المرئية كالطير وغير المرئية كالجن. فالخلافة عن الله تستوجب مقومات مقابلة.

### من حاكمية الاستخلاف إلى حاكمية البشر

ثم قضى الله بعد حاكميته الإلهية وحاكمية الاستخلاف بالحاكمية البشرية التي تخلو من متعلقات وشروط الحاكمية الإلهية وحاكمية الاستخلاف، فلا تسخير لجن ولا شق لبحر ولا انبجاس لماء من صخر مهما عطش المسلمون ولا شق لخندق في الأرض مهما حوصروا، فلا خارق عطاء ولكن أيضاً لا خارق عقاب. فالشرعة الآن شرعة تخفيف ورحمة مهما دس الداسون ومائلوا بين شرعة التوراة وحاكميتها الإلهية والاستخلافية وشرعة المسلمين المغيرة نسقاً ومنهاجاً. بالحاكمية البشرية تحوّل الخطاب إلى خطاب عالمي، لا إلى خطاب قبلي كما في

(٨) المصدر السابق، ص ١٧٣.



حال بني إسرائيل، وأصبح موجّهاً إل الناس كافة، باتجاه جميع المناهج المعرفية، وجميع الأنساق الحضارية، وأصبح الكتاب بيد البشر يتناولونه بمنهج آخر فمن أخطأ فله أجرٌ ومن أصاب فله أجران.

فإذا أدركنا هذه الأنماط الثلاثية للحاكمية عبر القرآن فهنا معنى الحاكمية الإلهية ومتعلقاتها وأنها ليست لنا، وفهنا معنى حاكمية الاستخلاف وقدرتها الموكلة إليها في ما هو مسخر مرئى وغير مرئى وأنها ليست لنا، ثم نفهم حاكميتنا البشرية التي تتجاوز بنا عبر الكتاب ضيق اللاهوت الجبري وضيق الوضعية العلمانية باتجاه الوعي الكوني المطلق. فالمرحومان المودودي وقطب أشاعا بين المسلمين ما هو ليس من دينهم ونهجهم دون أن يدركا ذلك:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّئًا عَلَيْهِ قَاتِلَكُمْ بَيْنَهُمْ يَمَّا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ هُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا بَيْنَكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَأَسْبِقُوا إِلَى الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخَلِّفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨].

فديننا عالمية خطاب وحاكمية كتاب وشريعة تخفيف ورحمة. ومن هنا ندخل إلى تفاصيل هذه الدراسة.







## الفصل الأول

### الحاكمية الإلهية







الحاكمية الإلهية تعبير شاع استخدامه في الأدبيات الإسلامية عموماً وأدبيات الصحوة خصوصاً، ليشار به إلى التزام شريعة الله بدلالة ما يرد في بعض الآيات:

﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [الفائدة: ٤٤].

﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الفائدة: ٤٧].

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّئًا عَلَيْهِ قَحَاطَكُمْ يَبْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [الفائدة: ٤٨].

﴿إِنَّ الْحَكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الانعام: ٥٧].

وتقابل الحاكمية الإلهية بالحاكمية الوضعية التي ينتجها الذكاء البشري دون التزام بالشرع الإلهي، في ما يشار إليه في عصرنا بالأنظمة الوضعية، وفي ما يُشار إليه ماضياً بالجاهلية:

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الفائدة: ٥٠].

وعلى أساس من أحد الأمرين يتم الاختيار، فيلتزم من هو مؤمن بالحاكمية الإلهية أساساً لعقيدته مطبقاً لشرع الله، فيما يرجع الآخر إلى ذكائه البشري بعلمانية معاصرة وجاهلية سالفة. وبما أن الوضعية العلمانية المعاصرة تُرادف - في مفهوم البعض - الجاهلية السالفة\*، فإن المنطق يتداعى لتترادف العلمانية مع الكفر، كما تترادف الجاهلية مع الشرك، فتتكرس دائرة التناقض ضمن ثنائية حادة، فإما الحاكمية الإلهية

\* تم تاصيل هذه المقابلة بين الجاهلية المعاصرة (العلمانية) والحاكمية الإلهية وصياغتها عند سيد قطب (المحقق).



وإما الكفر، وعلى هذا الأساس تُعدّ جميع المجتمعات ذات النهج العلمانيّ الوضعيّ مجتمعات جاهلية كافرة، ولا توسّط بين الأمرين.

وبهذا «المُضْمَرُ الفكري» تتجه بعض الحركات الإسلامية إلى تمييز نفسها عن الآخرين في مجتمعاتنا بوصفها - أي هذه الحركات - مجسّدة في ذاتها وتكوينها إطاراً لحاكمية الله، أي إن في داخلها الحركي يكمن «الخلاص»، فهي دون غيرها «مدينة الله» والآخرين «مُدن الشيطان». ويتداعى المنطق فيُشَبِّعُ هذا الإطار الحركي على نفسه «مشروعية التصرف» باسم الله وحاكميته، فيرى في سبيل غاياته تبريراً لكل الوسائل، مستحلاًّ الأنفس والدماء والأموال، «براحة ضمير تامة»، فكل تصرف يتم بمُضْمَرِ المشروعية الإلهية، وفي مواجهة الكفر والجاهلية.

ولا يخلو الأمر في غُلُوّه وتطرّفه من تنصيب على مشروعية التصرف مستمداً من آيات الكتاب، فالمجتمع الجاهلي هو في طبيعته حرب على الله ورسوله وبغي وفساد في الأرض:

﴿إِنَّمَا جَرَأُوا الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جَزَاءُ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣].

هذه لوحة قائمة بالطبع أردت من خلالها تفكيك عناصر المركبات الذهنية الدينية المُصَابِيَةِ بالذات، والتي تمضي بتداعيات منطقية ميكانيكية من معنى بسيط إلى آخر مركب، لتنتهي إلى أقصى حالات الغلو والتطرّف، مستجابة في كل ذلك لتسلسلها المنطقي الخاص من الحاكمية لله إلى تكفير الآخرين، إلى مشروعية التصرف الديني براحة ضمير تامة ضد الجاهليين العلمانيين الوضعيين، ومن منطلق أن هذه الحركات - معارضة أو حاكمية - هي مدينة الله في الأرض، والمجسّدة لكللماته تماماً كمتعقد



## الحاكمية الإلهية

اليهود في ذاتية أنفسهم، حين ظنوا أنهم مدينة الله في مقابل الأميين، فاستحلوا براحه ضمير تامة سرقة الغير من هؤلاء الأميين:

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِعِطَافِ بُرْهَانِهِ وَإِلَيْكَ مُّوَدِّعُهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِرَيْبِكَ لَا يُؤَدِّعُهُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِمْ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُتِينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥].

بالطبع هناك من لا يمضي بتداعيات التسلسل الميكانيكي للمنطق من الحاكمية الإلهية المجسدة في التنظيم إلى نهايات التكفير والتجهيل، بما يماثل العقلية العصابية التي عرضنا لها، ويلجأ في اختيارات النصوص إلى ما يتسم بالمجادلة الحسنة والتسامح وردّ الهدى ومقتضاه إلى الله، ولكن حتى هذا البعض الأريحيّ المتسامح لا يستطيع أن يفلت في نهاية المطاف من موازنات التداعي المنطقي الذي يتدئ بمفهوم الحاكمية الإلهية ويخلص إلى مجاهدة الآخرين، فالأرضية في فهم هذه النصوص تكاد تتماثل، ويبقى الاختلاف في كيفية الطرح وتبني الوسائل، فالعقلاء يجنحون إلى التوسط والمرونة وتقديرات حكم الزمان والمكان، فليس كل ما يُطلب حضر وقته أو حضر رجائه، والقرآن حمّال أوجه. ومن عقليات هؤلاء تنبثق المواقف الوسيطة والتوفيقية التي تُعطي مساحة في الفكر الديني للرابطة الوطنية والتعددية السياسية والفكرية والأريحية الفردية. غير أن هذه المواقف ذات طبيعة انتقائية وتوفيقية. هي أقرب إلى «تحسين الوسائل» منها إلى «ضبط المفاهيم» والغايات. بل يمكن القول إن هذه المواقف الإصلاحية المرنة هي الحد الأدنى للتسلسل المنطقي ذاته، الذي يمضي في حده الأقصى إلى ما لدى الغير من غُلُوّ عصابي. فالمشكلة إذن هي في «ضبط المفاهيم» بأكثر مما هي في «عقلنة» المواقف وتحسين الوسائل، فمهما حُسّنت الوسائل دون ضبط المفاهيم فسترتدّ الحركات الإسلامية إلى تداعيات المنطق الميكانيكي، حين تجد نفسها في قمة السلطة السياسية، إذ لا تكون ثمة حاجة وقتها إلى تحسين الوسائل القُولية أو العملية.



### الحاكمية الإلهية والخلافة البشرية

قد تخيّر الأستاذ الدكتور محمد عمارة بعضاً من كتابات الأستاذ أبو الأعلى المودودي لتقديم نموذج عما سمّاه «نظرية الحاكمية الإلهية» فطرحها في إطار تحليلي نقدي ضمن دراسته المقدّمة إلى ندوة «إشكاليات الفكر الإسلامي المعاصر» التي دعا إليها «مركز دراسات العالم الإسلامي» في طرابلس الغرب (٢٨ - ٣٠ نيسان/ أبريل ١٩٩١).

وقد ميّز الدكتور محمد عمارة - في فكر المودودي - ما بين «مطلق الحاكمية الإلهية» بمعنى أن الله - سبحانه - هو مصدر التشريع و«الاستخلاف البشري» المقيد إلى الحاكمية الإلهية، قال:

«ففي صفحات من كُتب المودودي ورسائله تواجها صياغات لنظرية الحاكمية عنده تقيم التناقض بين حاكمية الله وحاكمية الإنسان، وتجعل من إفراد الله بالحاكمية حكماً بتجريد الإنسان والأمة من كل حق في أن تكون مصدرًا للسلطة والسلطان في أي شأن من شؤون الحياة... الأمر الذي يجعل البعض - سواء من أنصاره أو خصومه - يتصوّر حكومة الإسلام «ثيوقراطية» و«حتمية - إلهية» لا مكان فيها لإرادة الإنسان... وهذه الصياغات نجدها في مثل قول المودودي:

«إن الحاكمية في الإسلام خالصة لله وحده، فالقرآن يشرح عقيدة التوحيد شرحاً يُبين أن الله وحده لا شريك له، ليس بالمعنى الديني فحسب، بل بالمعنى السياسي والقانوني كذلك... إن وجهة نظر العقيدة الإسلامية تقول: إن الحق تعالى وحده هو الحاكم بذاته وأصله، وإن حكمه سواء موهوب وممنوح\*، وإن الإنسان لا حظ له من الحاكمية إطلاقاً... وخلافة الإنسان عن الله في الأرض لا تعطي الحق للخليفة في العمل بما يشير به هواه وما تقضي به مشيئة شخصه، لأن عمله ومهمته تنفيذ مشيئة

\* الحكومة الإسلامية، ص ١١٦، ٨١، ٨٢. ترجمة أحمد إدريس، طبعة القاهرة ١٩٧٧ م.



## الحاكمية الإلهية

المالك ورغبته... فليس لأي فرد قيد ذرة من سلطات الحكم... وأي شخص أو جماعة يدعي لنفسه أو لغيره حاكمية كلية أو جزئية في ظل هذا النظام الكوني المركزي، الذي تُدبر كل السلطات فيه ذات واحدة - هو ولا ريب سادر في الإلفة والبهتان...

فالله ليس مجرد خالق فقط، وإنما هو حاكم كذلك وآمر، وهو قد خلق الخلق ولم يهب أحداً حق تنفيذ حكمه فيهم (المرجع السابق، ص ٧٣، ٧٤، ٦٥، ٧٠٠). وحاكميته تشمل الجزء الاختياري من حياة الإنسان كما تشمل الجزء غير الاختياري، وعالم الكون بأكمله... وإن الأساس الذي ارتكزت عليه دعامة النظرية السياسية في الإسلام: أن تنزع جميع سلطات POWERS الأمر والتشريع من أيدي البشر، منفردين ومجتمعين، ولا يؤذن لأحد منهم أن ينفذ أمره في بشر مثله فيطيعوه، أو ليسن قانوناً لهم فينقادوا له ويتبعوه، فإن ذلك أمر مختص بالله وحده، لا يشاركه فيه أحد غيره.. فالخصائص الأولية للدولة الإسلامية STATE ثلاث:

- ١ - ليس لفرد أو أسرة أو طبقة أو حزب أو لسائر القاطنين في الدولة نصيب من الحاكمية، فإن الحاكم الحقيقي هو الله، والسلطة الحقيقية مختصة بذاته تعالى وحده، والذين من دونه في هذه المعمورة إنما هم رعايا في سلطانه العظيم.
- ٢ - ليس لأحد من دون الله شيء من أمر التشريع، والمسلمون جميعاً، ولو كان بعضهم ظهيراً لبعض، لا يستطيعون أن يشرعوا قانوناً.
- ٣ - إن الدولة الإسلامية لا يؤسس بُنيانها إلا على ذلك القانون الذي جاء به النبي من عند ربّه، مهما تغيّرت الظروف والأحوال\*.

إن الإسلام يستعمل دائماً لفظ الخليفة Vicegerent\*\* - في الحديث عن الذين

\* نظرية الإسلام السياسية، ص ٣١ - ٣٢. ترجمة خليل حسن الإصلاحي، طبعة بيروت، ضمن مجموعة،

١٩٦٩م.

\*\* حسب ترجمة عبد الله يوسف علي للقرآن الآية ٣٠ من سورة البقرة (المحقق).



يقومون بتنفيذ القانون الإلهي - بدلاً من لفظ الحاكمية sovereignty. ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التور: ٥٠]\*. ولفظ «إله» واصطلاح «الحاكمية» هما اسمان لحقيقة واحدة\*\*.

تلك نماذج من عبارات المودودي العامة والموهمة للبس والغموض، في قضية الحاكمية، ونظريته عنها. لقد جرد فيها الإنسان من كل حق في الأمر والتشريع والتقنين، بل والتنفيذ، فرداً كان أو جماعة، بل وحتى الأمة... وعندما اعترف بخلافته عن الله نفى أن تكون «الخلافة» هي «الحاكمية» - فاستمرت عباراته هذه تجرد الإنسان من كل ظل لـ «الحاكمية». وأفرد الله وحده بكل ألوان الحاكمية الدنيوية - كما في الدينية والطبيعية - وفي شؤون الإنسان الاختيارية - كما في الجبرية - لأن لفظ «إله» واصطلاح «الحاكمية» هما اسمان لحقيقة واحدة كما قال.

وتلك هي العبارات التي اجتزأها، ووقف عندها، وأشاعها أولئك الذين تصوّروا وصوّروا حكومة الإسلام ودولته: «ثيوقراطية»، الأمة فيها مجردة تماماً من جميع السلطات والسلطان!

بعد إثبات هذا المنظور المودودي للحاكمية الإلهية، يوضح لنا الدكتور عمارة حدود التصرف البشري بالخلافة عن الله في فكر المودودي، حيث يكون للإرادة البشرية والحاكمية البشرية مدخل وسلطان في «ظواهر الأحكام» و«ألفاظ الأحكام»، بما لديها من قدرة على «تأويل الأحكام» و«القياس» و«الاجتهاد» و«الاستحسان».

\* نظرية الإسلام السياسية، ص ٤٩.  
\*\* الحكومة الإسلامية، ص ٦٥.



## الحاكمية الإلهية

بالطبع لا يسع الفطرة الإنسانية السليمة إلا أن تتمنى حُكْمَ الله، خالق الكون والأعالم به، الرحمن الرحيم الذي يهدي إلى طريق الرشاد، وليس لنا قط، وليس من أهدافنا، أن نعترض على مفهوم الحاكمية الإلهية - ولو بالطريقة التي طرحها بها المودودي - بوصفها «استلاباً» لقيمة الإنسان الوجودية، أو تأطيراً لحركيته العقلية ضمن ضوابط مُقَنَّة إلهياً، وتشمل كل شيء في حياته.

هذا لا نعترض عليه، كذلك لا نعترض على مفهوم خلافة الإنسان عن الله في الأرض وفق ضوابط الهدى ودين الحق، فهذا كله من أصول عقيدتنا، سواء صيغت هذه المفاهيم صياغةً تتسم بالمغالاة أو بالمرونة، إذ يمكن تعديل مختلف أنواع الصياغة للمفاهيم مع الحفاظ على أصولها.

ولكن ينبع اعتراضنا الأساسي من عدم فهم الأستاذ المودودي وآخرين من بينهم الأستاذ سَيِّد قُطْبَ لمعنى «الحاكمية الإلهية» نفسه. فليس المقصود بالحاكمية الإلهية الالتزام بِشَرْعِ الله أو ردّ التشريع إلى الله، وقيام خليفة أو سلطة دينية تنوب عنه في الأرض، فليس للحاكمية الإلهية أي علاقة بهذه المعاني التي الترضها هؤلاء!

### ماذا تعني الحاكمية الإلهية في القرآن؟

إن الحاكمية الإلهية تعني «حكم الله المباشر للناس» دون استخلاف بشري، وهو حكم يتميز بـ«الهيمنة المباشرة» على البشر وعلى الطبيعة في آن واحد، مع التصرف الإلهي فيهما (البشر والطبيعة) تصرفاً محسوساً وملموساً - من وراء حجاب - ولكن عبر حدثيات منظورة.

ذلك كان جوهر العلاقة بين الله - سبحانه - والحالة التاريخية الإسرائيلية، وهي علاقة استوجبت قيام مملكة لله في الأرض يدير شؤونها الله - سبحانه - بنفسه لا بمنطق الاستخلاف البشري عنه.



لهذا أسبغ الله على الأرض التي اختيرت لهذا الحكم الإلهي المباشر صفة «التقديس»، وقد خاطب موسى قومه بهذا المعنى:

﴿يَقُولُ أَذْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْدُوا عَلَىٰ أَذْكَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾

[لقائده: ٢١].

كذلك أسبغ على مجموعة القبائل الإسرائيلية المحكومة بالحاكمية الإلهية صفة «التفضيل»، وقد خاطبهم الله بهذا المعنى:

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكَرُوا بَنِيَّ الَّتِي آمَنْتُ عَلَيْكَ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧].

ارتباطاً بهذه الحاكمية الإلهية المباشرة «قُدِّسَتْ» الأرض، و«فُضِّلَ» الشعب، ليس لذات الأرض أو لذات الشعب، ولكن ارتباطاً بهذه الحاكمية الإلهية. وأمام هذا التقديس والتفضيل المسبغين على الأرض وعلى الشعب، توقف كثيرون من المسلمين ومن سائر الشعوب الأخرى لدى عبارات التفضيل الإلهي لبني إسرائيل، وتقديس الأرض ووقفات يشوبها تدافع التساؤلات المتحسّسة للتمايز، إذ كيف يفضل الله - سبحانه - شعباً على آخرين؟ وكيف يقُدِّس أرضاً من دون الأرضين؟ ومثل هذه الوقفات المتسائلة تفجّر شروخاً غير مرئية في الضمير الإيماني تماماً كتلك الشروخ الفكرية التي برزت لدى المتكلمين حين حاولوا التوفيق بين «جبرية» التكوين الإلهي للإنسان ثم «مُعاقبته» على أفعاله، فبرزت مدارس الجهمية والأشعرية المعتزلة.

إن الله - سبحانه - لا يُقَدِّس أرضاً لذات الأرض، ولا يُفَضِّل شعباً لذات الشعب، وكلنا يعلم ما وصف الله به بني إسرائيل من فسق وضلال، وكيفينا في هذا المجال الأطلاع على بعض من هذه الآيات من سورة البقرة:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَيْنَا فِي قُلُوبِهِمْ أَنْ يُجْعَلَ بِكُفْرِهِمْ قُلٌّ يَسْمَا يَا مُرْكُم بِهِ إِيْسَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ \* قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا



الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ \* وَلَنْ يَتَخَوَّاهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ \*  
وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمُ النَّاسِ عَلَى حَافِظِهِمْ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوْمَ أَذْهَبُ عَنْهُمْ لَوْنَهُمْ وَلَهُمْ فِيهَا مَصْرُوفٌ وَمَا هُمْ بِمُعْزِزِينَ \* مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُمْسَرَّ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ \* قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ  
نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ \* مَنْ كَانَ عَدُوًّا  
لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ \* وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ  
الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ \* أَوْ كَلِمَاتٍ عُنْدَ اللَّهِ مُصَدِّقَاتٍ لِمَا مَعَهُمْ بَشَرٌ قَرِيبٌ مِنْ  
الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كَتَبَ اللَّهُ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَمَّا أَهْلُ الْبُحُورِ فَهُمْ أَكْثَرُ ظُلْمًا \* وَأَتَيْنَا مَا نَنُتَلُوا  
الْعَبِيدَ عَلَى أَمْرٍ سَلِيمٍ وَمَا كَفَرَ سَلِيمًا وَلَكِنَّ الْعَبِيدَ كَفَرُوا بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ \* وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِ الْهَدْيِ وَكُنَّا مِنْ أَمَلٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا  
تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَآئِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا  
بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ  
خَلْقٍ وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ \* وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَآتَقَوْا  
لِمُتُوبَةٍ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ حَبِيرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ \* يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رِيعًا  
وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ \* مَا يَوْمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ  
الْكِتَابِ وَلَا الَّذِينَ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكَ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ  
وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿[البقرة: ١٧٣-١٧٥]﴾.

ثم إنه لو كان الله - سبحانه - يقر منطق التفضيل رجوعاً إلى خصائص التكوين  
الذاتية لما اتخذ موقف الغاضب على إبليس حين احتج بأصول تكوينه وخصائصه على  
مرتبة آدم التفضيلية:

﴿قَالَ مَا مَنَّكَ عَلَىٰ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ \* قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا  
يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الاعراف: ١٢-١٣].



إن تعلق التجربة الإسرائيلية بحاكمية الله المباشرة هي التي قضت بتقديس الأرض وتفضيل الشعب، وليس ذلك رجوعاً إلى الخصائص الذاتية للأرض أو الشعب كما يتوهم البعض.

لقد قضت الحاكمية الإلهية أن يهيمن الله على الإنسان والطبيعة معاً، ولذلك تميزت التجربة الإسرائيلية بخوارق هيمن الله بها على الإنسان والطبيعة معاً:

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَمْجَجْنَكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَظَرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠].

﴿وَإِذْ أَسْنَقَتْ أَسُنَّ قَوْمِهِمْ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِمَصَالِكِ الْحَجَرِ فَأَنْفَجَرْتُمْ مِنْهُ اثْنًا عَشَرَ نَبِيًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِيقَهُمْ كُتِلُوا وَأَشْرَبُوا مِنْ رِذْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْمَلُوا فِي الْأَرْضِ مُغْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠].

﴿وَعَلَلْنَا عَلَيْهِمُ الْقَمَمَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَرِّ وَالسَّلَوى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الاعراف: ١٦٠].

إن هذا العطاء الخارق تستبغه «شريعة غليظة» - «شريعة الأضر والأغلال» - فيما إذا حصل الانحراف عن «العهد» أو الميثاق، ولذلك نجد أن الله يعاقبهم بنفس موازين العطاء الخارق، أي العقاب المماثل الخارق، وكذلك كان الأمر:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ \* ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ \* وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِرِينَ \* فَعَلَّمْنَاهَا تَكْلَافًا لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٣-٦٦]. وكذلك:

﴿فِيمَا تَقْضِيهِمْ لِيَسْئَلَهُمْ كُفْرِهِمْ بَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ وَفْقَهُمْ أَلْبِيَاءَ يَغْفِرُ خَوِي وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَعَنَ



اللَّهُ عَلَيْهِمْ يَكْفُرُهُمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا \* وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلُهُمْ عَلَى مَرْيَمَ بَهْتَنَّا عَظِيمًا \* وَقَوْلُهُمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظُّلُمِ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا \* بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا \* وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا \* فَيُظَلَّمُونَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا عَلَيْهِمْ طَيْبَاتُ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا \* وَأَخْذَهُمُ الزُّبْرَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿الشُّعَاء: ١٥٥-١٦١﴾.

فنبقضمهم «الميثاق» رفع الله فوقهم الطور فيكاد الجبل يهوي عليهم، وباعتدائهم في السبت مسخهم الله قردة، وبظلم منهم حرم الله عليهم طيبات أُحِلَّتْ لهم. إنها عقوبات إلهية تماثل في خارقها ما كان من خارق سابق في العطاء، فالتقديس ليس لذات الشعب.

#### البشر عند الله أكفأ

البشر عند الله أكفأ متمثلون، فإذا رجعنا إلى القرآن لا نجد مقابلة لفظية أو مفهومية ما بين «خاصة» و«عامة» بما يستدعي التمييز، فالله يستخدم تعبير كافة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سَبَأ: ٢٨].

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤].

بموجب هذه النظرة الإلهية التكافؤية للبشر وجه الله غضبه إلى اليهود حين أوعزوا للمسلمين في المدينة كي ينادوا الرسول (ﷺ) بمنطق الرعاية لهم. وأكد غضبه في آيتين متصلان في سياقهما بالكشف عن نيات اليهود السيئة تجاه المسلمين ونيهم، ففي سورة البقرة يحذرنا الله من مناداة الرسول بـ«راعنا» وبنبه إلى كيد اليهود:



﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَعَيْنَا وَفُؤُولُوا أَنْظَرْنَا وَأَسْمِعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ \* مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصِمُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٤-١٠٥]

ويؤكد الله التحذير نفسه في سورة النساء ويربط التحذير بكيد اليهود:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْكُرُونَ الصَّلَاةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَبْلُغُوا السَّبِيلَ \* وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا \* مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لِيَّا بِالْأَيْدِيهِمْ وَطَعْنَا فِي الْأَيْدِي وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَأَنْظَرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا \* يَأْتِيهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْلُسَ وَجُوهَهَا فَتَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [النساء: ٤٤-٤٧].

في المقابل يضع الله كلمة «انظروا» بديلاً من «راعينا»، فالنظرة من الناظر تحمل معنى «التكافؤ» إلى المنظورين والعناية بهم وتقديرهم، لذلك نجد أن الله حين يمنح رحمته عن الظالمين يوم القيامة فإنه لا «ينظر إليهم»:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْكُرُونَ يَهْدِي اللَّهُ وَأَيُّمَنِيهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكْذِبُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧].

وعلى النهج نفسه يأتي الله بتعبير العين الناضرة للدلالة على عانيته ومحبه لموسى:

﴿أَنْ أَتَدْرِي فِي أَتَابُوتٍ فَأَقِيغِي فِي الْيَمِّ فَلْيُقِغِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ حَبَّةً يَتَّى وَلِئَصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩].

ولم يقل لموسى: تنشأ تحت رعايتي.

إن «راعينا» كلمة مقبوحة ومذمومة لأنها من مُراعاة، والمراعاة تعود إلى راع ورعية ومرعى ورعى، بما يعني تحويل الناس إلى بهائم تُدفع بعضا الراعي. وما علاقة الراعي



برعيته إلا علاقة من يبحث لها عن الكلاً والماء والظل، حتى إذا اخترنت لحماً وشحمًا قام إلى ذبحها. لذلك أشار الله سبحانه - من طرف خفي - إلى غلظة قلوب الرعاة الذين دافعهم موسى ليسقي للبتين في أرض مدين:

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّكَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا شَيْءَ حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءَ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ۝ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ۝﴾ [قصص: ٢٣-٢٤].

فالرعاة يدافعون المرأة دون حياء أو شفقة، ولا يحترمون إلا إرادة القوي «فسقى لهما»، وكذلك يفعلون. ومع ذلك تتردد في منقولات الأحاديث ومروياتها ما يفيد بقول منسوب إلى الرسول مؤداه «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» وقد نهانا الله عن ذلك مرتين، ورد الكيد في القول إلى اليهود، فمهما صح «سند» الحديث المنسوب فإنه يتعارض في «مثنه» مع القرآن، فهو مرفوض مرفوض.

قد يردّد الناس هذا الحديث المكذوب بحسن نية، ولكن الأمر يخرج من ظاهر المعنى إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير، فالإقرار بصحة هذا الحديث يعني نسفاً لمفهوم التكافؤ والنظرة المتماثلة للبشر وتأكيداً لعلاقات الاستعلاء والدونية بما يخالف قطعاً الإطار الذي قرره الله للعلاقات بين الناس. وقد أوضح الله لنا أن اليهود يدركون معنى مخاطبة الرسول بـ«راعيًا» ولهذا حذر من كيدهم. فالمسألة ليست مسألة لفظ ولكنها مسألة معنى، يستتبع نهجاً فلسفياً كاملاً، تماماً كلفظ «الحاكمية الإلهية» الذي يطلق بحسن نية، بوصفه الالتزام بشريعة الله، دون استدراك نهجه ودلالاته. فالأصح أن يخاطب بعضنا بعضاً بمنطق «العناية»، لا الرعاية فلا نقول «في رعاية الله» بل «في عناية الله».

قد قيل إن الرعي «مهنة الأنبياء» ونسبوا ذلك إلى خاتم النبيين (ﷺ) والأمر خلاف ذلك، وهناك مرويات كثيرة لا أساس لها، على ضوء القراءة المنهجية للقرآن



وعلى ضوء وقائع التاريخ، وهذا ما خصصنا له دراسة لاحقة بإذن الله، عنوانها محمد قبل النبوة.

إن النداعي المنطقي من بعد القبول بمنطق «راعٍ ورعية» إنما يمضي للقبول بكل أشكال التفاضل بين البشر وبالكيفية التي يفسر بها البعض «ظاهر» الآيات دون ربطها بقراءة منهجية للقرآن:

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادَىٰ رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [فصل: ٧١].  
وكذلك:

﴿وَأَمْرٌ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُلْعِيًّا وَرَحِمْتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

وستصدر ضمن هذه السلسلة الترشيدية - بإذن الله - دراسة بعنوان منهجية القرآن والتفاضل بين البشر، حيث نعرض للدلالات هذه المعاني التي اتخذها البعض حجة على رجوع التمايز بين الناس إلى إرادة الله وسنة الخلق، فكرسوا مفهوم الانقسام الطبقي والعلو الاقتصادي والاجتماعي لفئة مالكة «سخر» الله لها الآخرين. والأمر خلاف ذلك.

### خصائص الحاكمية الإلهية

قد أوضحنا أن الحاكمية الإلهية هي هيمنة مباشرة على الإنسان والطبيعة، وأن «تقديس» الأرض، و«تفضيل» الشعب هما من متعلقات الحاكمية الإلهية، إذ لا يعود التقديس لذات الأرض أو التفضيل لذات الشعب، وأوضحنا طبيعة العلاقة القائمة على خارق العطاء وخارق العقاب بموجب العهد والميثاق الغليظ.

قد مارس الله هيمنته على الطبيعة عبر عصا موسى، حين يضرب بها ينشق البحر إلى



## الحاكمية الإلهية

طُودَيْن، وينبجس الماء من الصخر، فضلاً عن خوارق المعجزات الأخرى كتظليل بني إسرائيل بالغمام وإنزال المنّ والسلوى.

أما الهيمنة على البشر فلم يمارسها الله عبر «خليفة» عنه يتصرف من عند ذاته بموجب النظر في التوراة فقط والاجتهاد في نصوصها، وإنما جعل حكمه مباشراً عبر الأنبياء المتعاقبين الذين لا ينقطع تواصلهم ويحملون أوامره وتوجيهاته ونواهي.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ [البقرة: ٨٧].

قد حصر الله التوجيه البشري ضمن حاكميته في «فئة محدّدة يقرّرها هو من بين البشر، فئة النبيين المتعاقبين والرّبّانيين والأخبار». فالسلطة النبوية مستمرة في مجتمع الحاكمية الإلهية، يساندها الرّبّانيون والأخبار، ولا يرجع أمر اختيارهم للمجتمع البشري، وإنما لله وحده كحاكم مطلق، ووفق نصوص لا اجتهاد فيها:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَنْبِيَاءُ بِمَا تَسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيمَانِكُمْ ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ \* وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ الْفَاسِقَ وَالْعَيْنَ وَالْأَنفَ وَالْأُذُنَ وَالْأَذْنَ وَالْيَسْنَ وَالْجُرُوحَ فِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٤٤-٤٥].

كما وقرّ الله لذلك المجتمع «مجتمع الحاكمية الإلهية» إضافة إلى خارق العطاء الرغد من العيش الكريم:

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَيَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٥٨].



إن هذا الخطاب الإلهي الموجه إلى بني إسرائيل برغد العيش في القرية لا يماثله إلا خطابه - سبحانه - لآدم برغد العيش في الجنة:

﴿وَقُلْنَا يٰٓآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥].

فكأنما قرية بني إسرائيل هي جنة آدم، فالحاكمية الإلهية توفر لشعبها المحكوم ما هو أكثر من ضرورات العيش، تماماً كخارق العطاء الذي يتكافأ مع قيام الله - سبحانه - بالحكم المباشر وفق شريعة «العهد».

وقد ماثل الله بين إنذاره للإسرائيليين من بعد أن شقّ لهم طريقهم في البحر ييساً باتجاه الأرض المقدسة وحكمه من قبل على آدم وعلى إبليس باللفظة نفسها، أي الهبوط، ففي حالة آدم:

﴿وَقُلْنَا يٰٓآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ \* فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ \* فَلَقِيَ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتَيْنِ فَنَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٥-٣٧].

وفي حالة إبليس:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاهُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاهُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ \* قَالَ مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدُ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ \* قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الاعراف: ١١-١٣].

وفي حالة بني إسرائيل:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ أَنْ نَصِّرْ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاجِدْ فَإِذْ لَنَا رَبِّكَ يُخْرِجُ لَنَا مِمَّا تُثْمِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقَالِمَا وَفُتْلَاهِمَا وَفُوهِمَا وَعَدْبِهَا وَبَصِلَاهِمَا قَالَ أَسْتَبْدِلُوكَ الَّذِي هُوَ أَدْفَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبَطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَشَرِيتَ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ وَمَاءً يُمْضَسِرُونَ إِنَّ اللَّهَ ذَلِكُ يَفْعَلُ﴾



كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى اللَّهِ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَسْتَدُونَ ﴿٦١﴾

وفي كل هذه الحالات «السابقة» على الهبوط مارس الله حاكمية مطلقة إلى أن استكبر إبليس وعصى آدم، وكذلك فعل الإسرائيليون، فمثل الله حكمه عليهم في اللفظ «اهبطوا» لأنهم تدنوا عن حالات «التفضيل» والحاكمية المباشرة. وما يستتبع ذلك من عطاء إلهي مميز. فالحاكمية الإلهية ترتبط بشمولية هذا الوضع وليست مجرد «تعبير جزافي» يقتصر في معناه على التزام البشر بشريعة الله. فلهذا المعنى الأخير تفسير آخر ووضعية أخرى.

#### حين تمرّد الإسرائيليون على الحاكمية الإلهية

بعد قرون من بعثة موسى، تمرّد الإسرائيليون على الحاكمية الإلهية وطلبوا «ملكاً» من عند أنفسهم بدلاً من سلطة الأنبياء والرّبّانيين والأحبار المتصلين بالله، وطلبوا من الله أن يختار هذا الملك - أن «يبعث» لهم ملكاً. فتحولوا بذلك عن منطق «الحاكمية الإلهية» إلى «حاكمية الاستخلاف» عن الله. فكيف دفع الله بهم باتجاه حالة «الملك - الاستخلاف»؟ وكيف كانت خصائص تلك الحالة؟ وما الفرق بين الحاكمية الإلهية وحاكمية الاستخلاف عن الله؟ ثم ما هو الفرق بين «حاكمية الاستخلاف» و«حاكمية البشر»؟

هذا ما سنجيب عنه - بإذن الله - عبر نصوص القرآن بادئين باختيار الله لطالوت ملكاً ثم داود وسليمان:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَدَأَ مُوسَى إِذْ قَالَ لِنَبِيِّ لَهُمْ أَمَّا لَكُمْ فَاذْكُرُوا مَا كُنْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِينِنَا وَأُتْبِئْنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا



فَلَيْسَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمُ الْغُلُوبِ \* وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي أَوَّلِهِ وَالْجِسْمُ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلِكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا \* وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ \* فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلتَمَّوْا اللَّهَ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلًا غَلَبَتْ فِئَةُ كَثِيرُهُ يَؤِذُنَ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ \* وَلَمَّا بَرَرُوا لِبَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبِّنَا آفِئْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَكَسِّرْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ \* فَهَزَمُوهُمْ يَؤِذِبُ اللَّهُ وَقَتْلَ دَاوُدَ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَئِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُكْمِلِينَ \* تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿[بقرة: ٢٤٦-٢٥٢].

هنا كان المنعطف، حين طلبوا «ملكاً» يختاره الله كمقدمة للخروج عن حاكمية الله. طلبوا ذلك من النبي الذي كان يزاول الحاكمية الإلهية فيهم بتوجيه الله المباشر، أي إنهم ردّوا اختيار الملك إلى الله نفسه «ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله» ولم يعرفوا وقتها أنهم يدخلون بذلك مرحلة «الخلافة» عن الله، إذ قدّروا أن مواصفات الملك ستأتي تبعاً لرؤيتهم بما في ذلك أن يكون هذا الملك ذا «سعة من المال».

«اختار» الله لهم طالوت ملكاً، ثم دفع الله بهم إلى معركة ضد جالوت وجنوده دون



## الحاكمية الإلهية

خارق معجزات حسيّة. لقد تمرّدوا على الحاكمية الإلهية فذهب الله بهيمنتهم المباشرة على الإنسان والطبيعة، والآن يمارس الله دوره «غيباً» وقد وضعهم في أقصى الحالات، يتليهم بنهر يمنعمهم الشرب منه وهم في طريقهم إلى قتال عدوّ شرس، ومن قبل كانت الحجارة تتشقّق فينبجس منها الماء بضربة من عصا موسى، ومن قبل كان يُغرق عدوّهم - آل فرعون وجنوده - وهم ينظرون من بعد أن انفلق لهم البحر.

أما الآن، ومن بعد التمرد على الحاكمية الإلهية فـ:

﴿إِنَّكَ اللَّهُ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِي﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وفشل كثير منهم في الاختيار «فشربوا منه إلا قليلاً منهم»، وهذا القليل منهم هو الذي بقي لطالوت، ومن هذا القليل ارتاب جزء، وتضعضت قواه الإيمانية حين رأى حشد جالوت فقال «لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده» فما بقي لطالوت غير «قفة قليلة» كان عليه أن يخوض بها غمار معركة لا يتدخل فيها الله تدخلاً مباشراً. قد هزمت القلة القليلة الصابرة - بإذن الله - جيش جالوت، وقتل داوود جالوت، ثم ولّاه الله الملك.

تلك كانت بدايات التحوّل من «الحاكمية الإلهية» إلى «حاكمية الاستخلاف» عن الله وباختيار الله وتسمية لخليفته، وقد حملت تلك المرحلة بدايات «التعلّق الغيبي» بالله وفعله خارج دائرة المحسوسات والمنظورات. فما حدث في المعركة مع جالوت وجنوده يماثل - بنسبة ما لا على نحو نهائي - ما حدث في معركة بدر، أي نصر الله بتدخّل «غيبى». ولكن لم تكن الحالة الإسرائيلية وقتها قابلة لأن تمضي في التعلّق بالله «غيباً» كالحالة الإسلامية. ولذلك رُبط اختيار الملك بالتسمية الإلهية له، ضماناً للالتزام الله بالنصر، وارتهاناً منهم لشكل من أشكال الحاكمية الإلهية التي يتطلعون إلى تدخلها المباشر في المعركة ضد جالوت. لذلك صُعّب على الإسرائيليين أن يفهموا كيف أن



الله، وقد استجاب لمطلبهم في اختيار الملك الذي سيقودهم وتسميته، يمنعهم في الوقت ذاته من شرب الماء ﴿إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَهُ﴾، ثم يضعهم وهم قلة عطشى بوجه جالوت وجنوده.

تلك كانت بداية الانتقال الإلهي ببني إسرائيل من الحاكمية الإلهية إلى حاكمية الاستخلاف، بادئاً معهم بدرس «غيبى» لا يطبقونه، فهم - أي الإسرائيليون - إذا أرادوا التوفيق بين الحاكمية الإلهية وحكمهم لأنفسهم - ﴿أَبَعَثَ لَنَا مَلَكًا﴾ - فقد جرّدهم الله من خصائص الحاكمية الإلهية ولكنه - سبحانه - تفادى أن يهزموا وقد أوكل إليه اختيار الملك.

ذلك الدرس الغيبى الذي لم يستطع الإسرائيليون أن يستوعبوه بعد قرون من بعثة موسى، استوعبه المسلمون بعد عقد زمني واحد من بعثة خاتم النبيين الذي جاء ليؤصل العلاقة «الغيبية» مع الله، وذلك ما كان في معركة بدر التي جرت في إطار التعلق الغيبى بالله.

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ \* إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزِيلِينَ \* بَلَىٰ إِنْ تَصِيرُوا كُفَرَاءَ وَسَقَرَاءَ وَأَنْتُمْ مِنْ قَوَرِهِمْ هَذَا يُمْدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ \* وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْلَمَ إِلَىٰ قُلُوبِهِمْ بِئْسَ الْفِتْنَىٰ لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتُمُهُمْ فَتَكْلَبُوا وَخَالِيَيْنَ ﴿آل عمران: ١٢٣-١٢٧﴾.

لم يكن تدخل الملائكة هنا تدخلاً منظوراً محسوساً، وهذا ما نتعرف عليه في سورة «الأنفال» \*.

﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ إِلَى مَعْكُمُ فَفَعِلُوا الْآيَاتِ فَأَمَّا آلِيقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَرُشَبَ فَأَظْمِرُوا فَوَقَّ الْأَعْتَابُ وَأَظْمَرُوا عَنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢].

\* للتوسع في تحليل المؤلف لمعركة بدر، يراجع كتابه العالمية الإسلامية الثانية، طباعة دار ابن حزم للطباعة والنشر، المجلد الثاني بداية من ص ٧٨ وما بعدها (المحقق).



## الحاكمية الإلهية

كان تدخل الملائكة غيبياً لا «منظوراً»، فالله قد أمر الملائكة بالضرب «فوق الأعناق»، ولا يكون الضرب إلا تحت الأعناق أي في الرقاب حين يكون بالسيف، أما فوق العنق فتكون الجملة العصبية الدماغية المحمية بالجمجمة، فالضرب هنا ليس كنوع ضربنا. ثم أمر الله الملائكة بضرب «البنان» وهو نهاية الأصابع، وليس ضرب البنان من نوع ضربنا، إذ يكون ضربنا قطعاً للكف أو اليد لا نهايات أطراف الأصابع. ويمكن مقارنة نوعية ضرب الملائكة في سورة الأنفال بنوعية ضرب البشر في سورة محمد:

﴿إِذَا لَقِيتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَصَبِّ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَنتَشَمُوا فَنُدُّوا إِلَيْنَا مَنًّا بَعْدَ وَإِنَّا فِتْنَةُ حَقٍّ نَضَعُ الْكَرْبَ أَوْزَارَهُمْ ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَنُنَصِّرَهُمْ وَلَكِنْ يَبْتَغُونَ بَعْضَكُمْ مِنْ بَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُبَدِّلَ أَمْثَلَهُمْ﴾ [مُحَمَّد: ٤].

فضرب الملائكة استهدف إبطال الجملة العصبية «فوق الأعناق - بنان» وبشكل غير منظور، أي لا يقع في باب الخوارق الحسية المرئية.

معركة بدر تماثل «نسبياً» معركة جالوت، فكلتاها قد جرتا بغثة قليلة مؤمنة صابرة واثقة «غيبياً» بالله، وفي حالتيهما تدخل الله تدخلًا غيبياً غير منظور، فصارع أئمة الكفر في بدر كما صارع داود جالوت.

هذه مرحلة مختلفة جداً في علاقة الله مع الإنسان خارج إطار الحاكمية الإلهية وما يستتبعها من سلطة إلهية مباشرة عبر حكم الفئة المختارة من الأنبياء المتعاقبين - غير المرعّين - وخضوع الطبيعة والقرية الرغدة وكل الخصائص التي شرحناها.







## الفصل الثاني

### حاكمة الاستخلاف







ولكن ثمة فارق لا بدّ من الإشارة إليه ما بين تحوّل الإسرائيليين عن الحاكمية الإلهية وصياغة المنهج الديني الإسلامي أصلاً بمعزل عن منظور الحاكمية الإلهية وما يستتبعها من خصائص. ففي الحالة الإسرائيلية بدأ الأمر «تمرداً» فاستجاب لهم الله، ولكنه - سبحانه - استصفى في الوقت ذاته الفئة المؤمنة القليلة الصابرة، الواثقة به «غيباً»، وتولّى هو - سبحانه - اختيار الملك طالوت، ثم وهب الملك لداود ثم سليمان، متحوّلاً بالإسرائيليين من مرحلة «الحاكمية الإلهية» إلى مرحلة «الاستخلاف» عن الله في الأرض، وهو استخلاص له خصائصه أيضاً، فهو مرحلة «وسيلة» بين «الحاكمية الإلهية» بخصائصها التي ذكرناها و«الحاكمية البشرية» التي ترجع إلى الإنسان وترتبط بخصائصه. وسنحلل في الفصلين التاليين مفهوم «الاستخلاف» ثم مفهوم «الحاكمية البشرية» الملتزمة بشرع الله، ولكن ضمن خصائص وموجبات مختلفة.

أوضحنا في الفصل الأول معنى «الحاكمية الإلهية» وما يحيط بمنهجها الكلّي من هيمنة إلهية مباشرة، وناقشنا القضايا المتفرعة عن ذلك. ونعود في هذا الفصل لندرس حاكمية الاستخلاف، وهي حاكمية تلي في الدرجة الحاكمية الإلهية، ولكنها لا تعني «حاكمية الإنسان»، ولو استمدّت الحاكمية الإنسانية نهجها من كتاب الله. فلكل حاكمية خصائصها وإطارها وفق المنهجية القرآنية:

في ظل «حاكمية الاستخلاف» يظل الترشيد الإلهي قائماً، وغالباً ما يجتمع المُلْك مع النبوة. غير أن هذا الترشيد لا يأخذ طابع المخاطبة والأوامر والتوجيهات كما كان الوضع عبر الفئة المختارة والمعاقبة من الأنبياء والرّبّانيين، وإنما يأخذ طابع «التفهيم» و«الإيحاء»، أي الطابع غير المباشر، إضافة إلى التحوّل من منطق الهيمنة الإلهية



بالمعجزات الخارقة إلى منطق «التسخير» الذي يعكس «تفويضاً إلهياً» للإنسان في السيطرة على الطبيعة والكائنات.

إن حاكمية الاستخلاف عن الله في الأرض للإنسان تعني أن يكون «الخليفة» موصولاً بالله عبر الإلهام والإيحاء، وأن تُسخر له الطبيعة والكائنات. وهذا ما كان مع داود وما كان مع سليمان، وتعني أن يختار الله - لا المجتمع البشري - هذا الخليفة، تماماً كما اختار الله طالوت ثم داود ثم سليمان، فالخلافة «اختيار إلهي» مرتبط بترشيده إلهي وتسخير إلهي وليست مجرد ممارسة سلطة دينية بموجب شرع الله وباختيار بشري. وفي هذا الإطار سنحلل الآيات القرآنية التالية والخاصة بخلافة داود وسليمان عن الله، لتتعرف على خصائص مفهوم الخلافة فلا نطلق الكلمات عفو الخاطر:

﴿أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْخُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ \* إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسِيحْنَ بِالْأَيْمِ  
وَالْإِشْرَاقِ \* وَالطَّرِيقَ حَشُورُهُ كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ \* وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَعَيْنَهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْفُطُوبِ \*  
وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ \* إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ  
خَصْمَانِ بَيْنَ بَعْضِنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَخَرُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ \* إِنَّ هَذَا أَخِي  
لَهُ يَسَّحُ وَنُسَوِّعُ نَجْمَهُ وَبَيْنَ نَجْمَةٍ وَجِدَةٍ فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْفِطَابِ \* قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ  
نَجْمَيْكَ إِلَى يَمَاجِجٍ. وَإِنْ كَثُرَ بَيْنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْنِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ  
مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ ۝ \* فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى  
وَحُسْنَ مَآبٍ \* يَبْدُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاصْبِرْ إِنَّ النَّاسَ لَافْسِقُونَ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى  
فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ تُنْفَخُ الْأَشْيَافُ﴾

[ص: ١٧-٢٦].

وكذلك:



﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجْعَالُ آوِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ \* أَنِ امْعِلْ سَبْعَ نَجْدَاتٍ  
وَقَدِّرْ فِي السَّرِّ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سج: ١٠-١١] .

وجرى الأمر نفسه مع سليمان:

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غَدُوها شَهْرٌ وَرَوْحُها شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الطَّيْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ  
يَدَيْهِ مُذَوِّنَ رَبِّهِ وَمَن يَبْغِ مِنْهُم عَن آمْرِنَا نَقْضُهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ \* يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ  
مَّخْدِبٍ وَمَنْشِيلٍ وَجَنَّاتٍ جَلْجَلٍ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا أَل دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ  
الشَّاكِرِينَ \* فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةٌ مِنَ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِن سُنَابِهِ فَلَمَّا  
خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَن لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سج: ١٢-١٤] .

وكذلك:

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ \* إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِيَتِ الْجَبَّارَاتِ \*  
فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ \* رُدُّوها عَلَيَّ فطُفِقَ مَسَامًا يَالَسُوفِي  
وَالْأَعْنَاقِ \* وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ \* قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا  
لَّا يَبْغِي لِأَحَدٍ مِن بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ \* فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ \*  
وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ \* وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ \* هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ  
حِسَابٍ \* وَإِن لَّهُ عِندَنَا لَآزِلٌ وَحُسْنُ مِتَابٍ﴾ [ص: ٣٠-٤٠] .

وكذلك:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ \* وَوَرِّثَ  
سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ إِنَّا نَبَأُهَا النَّاسُ عُلِمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ  
الْمُبِينُ \* وَخُيِّرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ \* حَتَّى إِذَا تَوَّأا عَلَى وَادٍ



النمل قالت نملها اتسلوا مسكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وفر لا  
 يشعرون \* فبسه حياجا من قولها وقال رب اوزعني ان اشكر نعمتك التي انعمت علي وعلى  
 والدي وان اعمل مصلحا ترضه وادخلني برحمتك في عبادك الصالحين \* ونفذ الطير فقال  
 مالك لا اري الهذه ام كان من الكافرين \* لا عذبته عذابا شديدا او لا اذبحته او  
 ليايتني بسطن من ميين \* فمكت غير بعيد فقال احطت بما لم تحط به وجئت من سبي  
 بلقيثين \* ابي وجدت امرأة تليكهم واوتيت من كل شئ ولما عرش عظيم \* وجدتها  
 وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان اعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا  
 يهتدون \* الا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والارض ويعلم ما تحفون وما  
 تخشون \* الله لا اله الا هو رب العرش العظيم \* قال سننظر اصدقت ام كنت من  
 الكاذبين \* اذهب يكتبي هذا فاليه اليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون \* قالت يا ايها  
 الملوك ابي القى اليك كتاب كريم \* انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم \* الا تملوا على  
 واتوني مسليين \* قالت يا ايها الملوك ائتوني في امري ما كنت فاطعة امر حتى تشهدون \* قالوا نحن  
 اولوا قوة واؤلوا باين شديد والامر اليك فانظري ماذا تأمرين \* قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية  
 افسدوها وجعلوا اعزة اهلها اوله \* وكذلك يفعلون \* واتي مرسلة اليهم بهديهم فاطروا بهم  
 يبيع المرسلون \* فلما جاء سليمان قال ائيدوني بما لي فاما اتيتني الله خيرا مائنا ما انكم بل انه  
 يهديكم لقرون \* اتبع اليهم فلما اتيتهم يحضرون لا قيل لهم بها ولعنهم منها اوله وهم صيرون \*  
 قال يا ايها الملوك ائكم يايتني بعرش قبل ان ياوتي مسليين \* قال عيرت من لجن انا اياك به قبل ان  
 تقوم من مقامك واتي عليه لقوي امين \* قال الذي عنده علم من الكتاب انا اياك به قبل ان ترث  
 اليك طرفك فلما راه مستقيرا عنده قال هذا من فضل ربي ليسلون ما شكر ام اكفر ومن شكر فائنا  
 يشكر لنعبيه ومن كفر فان ربي غفور كريم \* قال نكروا لما عرشها ننظر انهندي ان تكون من الذين



لَا يَتَذَوْنَ \* فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشِي قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ \*  
وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ \* قِيلَ لَهَا أَدْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ  
لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالِ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ  
مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿[النمل: ١٥-١٤]﴾

وكذلك:

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحَكْمِهِمْ  
شَاهِدِينَ \* فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ  
وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ \* وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِنُخْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ  
شَاكِرُونَ \* وَسَلَّمْنَا الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ  
عَالِمِينَ \* وَرَبُّ الشَّيَاطِينِ مَنْ يُغْوِشُوكَ لَهُ وَيُمْلِكُ عَلَيْكَ الْعُمَلَاءَ دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ  
كَافِظِينَ﴾ [الانبيا: ٧٨-٨٢].

من هذه الآيات نتعرف بجلاء على ما يكون لـ «خليفة الله» في الأرض: كل شيء  
مسخر له، الطبيعة رهن أمره، الطير محشورة، ومنطق الطير معلوم، والجند من الجن  
والإنس والطير محشورون، ولغة النمل معلومة، والريح مسخرة غدوها شهر ورواحها  
شهر، والحديد يلين، وتسال عين القطر.

وإذا غمضت المسائل وارتبك «الاجتهاد» تدخل الله - سبحانه - فأفهم سليمان  
حكم الغنم التي نفشت في حرث القوم، وحين يخطئ داود في الحكم يبعث الله إليه  
من يتسور المحراب ويراجع معه الحكم، ويفتن سليمان ويلقي على كرسيه جسداً  
فيتعظ وينيب.

ذلك هو «سلطان - قوة» الخليفة عن الله في الأرض الذي «يختاره» الله ويصرف  
إليه بالتسخير من مظاهر قوته ما يشاء. فالاستخلاف عن الله ليس مجرد «سلطة سياسية»  
ولكنه «استخلاف كوني» وهيمنة على البشر والطبيعة «بتفويض إلهي».



هذا هو معنى «حاكمية الاستخلاف» ومعنى أن يكون إنسان ما خليفة عن الله في الأرض.

مع ذلك لا بد من ملاحظة أمرين:

أولاً: أن الخلافة عن الله في الأرض، بالرغم من الخصائص المستتعبة لها على ضوء ما تناولته الآيات، لا تنتهي إلى «عِصْمَة» الخليفة وقيامه مقام الله - سبحانه - وإلا لما لزم أن يتسور الخصمان المحراب ليصححاً حكم داود، ولما لزم أن يفهم الله سليمان الحكم في غنم القوم، ولما لزم أن يلقي على كرسيه جسداً.

ثانياً: أن يكون خليفة عن الله في الأرض وبهيمنة على ظواهر الطبيعة وعلى الإنس والجن، فلا يعني ذلك أنه «أقوى» الكائنات، فسليمان بكامل قوته وهيمنته لا تبلغ قوة التسخير له إلا ما تعطيه قوة ذلك العفريت من الجن الذي وعد بإحضار عرش ملكة سبأ قبل أن يقوم من مقامه - ساعات البقاء في قاعة حكمه - بينما «عبد» من عباد الله لم يذكر الله اسمه، كان قادراً على أن يأتي لسليمان بذلك العرش قبل أن يرتد إليه طرفه، أي في جزء من ثانية.

فالخليفة عن الله - بالخصائص المتعلقة به قوة وتسخييراً وتفويضاً - ليس هو مع ذلك المعصوم عن الخطأ أو أقدر الكائنات البشرية، ولكنه الوحيد - بوصفه الخليفة عن الله - الذي «يجب طاعته» إذ إن صفته كخليفة هي «اختيار إلهي». وهذا هو معنى «حاكمية الاستخلاف». وبقي علينا أن نبحث في الفارق بين حاكمية الاستخلاف والحاكمية البشرية.







## الفصل الثالث

### حاكمية الكتاب البشرية



يختلف مفهوم «حاكمة الكتاب البشرية» عن مفهوم «الحاكمة الإلهية» و«حاكمة الاستخلاف»، فالمفهوم هنا يعود إلى «حاكمة الإنسان» خارج منهج الهيمنة الإلهية المباشرة على البشر والطبيعة «الحاكمة الإلهية»، وكذلك خارج منطق الاختيار الإلهي والتسخير «حاكمة الاستخلاف».

تأتي «الحاكمة البشرية» في إطار التعلّق الغيبيّ بالله. يعطش القوم ولا ينبجس الماء من الصخر، ويجوع القوم ولا مَن ولا سلوى، ويُحاصر القوم في يثرب بين اليهود في الداخل والمشرّكين في الخارج فلا تنشقّ الأرض عن أخذود يحتمي به المسلمون، وإنما هو خندق يحفرونه بعرق يمازجه دم، فليس هنا مكان الحاكمة الإلهية كما قدر الله لحكمة سنسبسطها، علماً بأنه كان على رأس هذه المرحلة خاتم المرسلين وإمامهم جميعاً.

ويعيش القوم الضنك فلا ريح غدّوها شهر ورواحها شهر، ويحصلون على سيوفهم ورماحهم بشقّ الأنفس، إذ لا عين قطر تُسال ولا حديد يُلان ولا جبن تغوص وتسبك، فليس هنا مكان الحاكمة المستخلفة.

وما جعل الله تدخّله في حيثيات تلك الحالة إلا تدخلاً غيبياً أخبر هو - سبحانه - به عبر كتابه، ومن ذلك قصة ملائكة بدر التي أوضحناها.

إن مرحلة «الحاكمة البشرية» هي أخطر مرحلة تناولها الخطاب الإلهي للبشرية منذ خطاب الحاكمة الإلهية وحاكمة الاستخلاف، فالله قد تدرّج بالبشرية لتحكم نفسها وتلك غايته من الخلق، وهي غاية انتهى الله إلى تأسيسها على يد «خاتم النبيّين» وفي الأرض «المحرّمة» وجعل لها «القرآن» العظيم منهجاً.



قد يستغرب البعض ويتساءلون:

كيف تكون «الحاكمية البشرية»، المنسوبة إلى البشر، أخطر من «الحاكمية الإلهية» المنسوبة إلى الله - سبحانه - وأخطر من «حاكمية الاستخلاف» التي يختار الله فيها شخص الخليفة ويُسَخَّر له قدرات الإنس والجن والطبيعة؟!

هؤلاء - بحُسن نياتهم - لا يميزون بين «هدف» الله من الخلق، و«حق» الله في أن يحكم ما خلق ويتحكم فيه، وأقول:

نحن جميعاً مخلوقات الله، والله أولى بنا من أنفسنا وغايته أن يرقى بنا لنكون خلقاً متكافئاً، عقلاً ونفساً، مع الوجود الكوني وحركته:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩].

وهذه الآية يأتي من بعدها مباشرة إخبار الله للملائكة أنه جاعل في الأرض خليفة. يظن الناس - بالمنطق البشري المستجيب للذة الحكم والسلطة - أن الله قد خلق الكون ليوجد مملكة يحكمها ورعايا يذلّون له رقابهم، وهذا إسقاط بشري ضيق الأفق على علاقة الله بخلقه الكوني، متناسين أن الله - سبحانه - يكرر دوماً «غني عن العالمين» فهو أحد، صمد، قائم بذاته المنزهة والمقدسة والمباركة... ولا يفتقر إلى العبادة والجهاد:

﴿وَمَنْ جَاهِدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [الغنكبوت: ٦].

فكل ما نأتيه من صالح الأعمال - بعونه - هو لنا، عائد لنا على طريق ترقيتنا ليمارس الإنسان مهامه الكونية، متكافئاً بين الخلق والحق.

وقضى الله أن تكون حاكميته الإلهية المباشرة، ثم حاكمية الاستخلاف، ليصل إلى غايته في الحاكمية البشرية. وإلى من أسند تأسيس هذه الحاكمية البشرية؟ وما هي خصائصه؟



قد أسندها إلى أفضل الخلق جميعاً فهو:

أولاً: الذي قدّمه الله في الذكر على ذاته المنزهة والمقدسة استصفاه من كل ذنب: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا \* لِيَخْفَرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ سِرَاطًا مُسْتَقِيمًا \* وَنُصِّرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١-٣].

ثانياً: وهو الذي أوتي السبع المثاني والقرآن العظيم، بمعنى «الخلافة الكونية» المستندة إلى القرآن كوعي معادل موضوعياً للوجود الكوني وحركته. والمثاني السبع هي السماوات السبع والأرضون السبع وليست السور الطوال كما ذكر بعض المفسرين، فالسور الطوال بوصفها جزءاً من القرآن، أو سورة الفاتحة بوصفها هي أيضاً جزءاً من القرآن، لا يمكن أن يكون القرآن عطفاً عليها. ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الثَّانِي وَالْأُولَىٰ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [هجر: ٨٧].

فالإشارة إلى المثاني السبع ثم إلى القرآن عطفاً عليها تميّز بوضوح بين الأمرين. ثم إن هذه السباعية قد رُبِطت بمثنوية، أي أمر وما يقابله، كالشمس ومثناها القمر، والنهار ومثناه الليل، والذكر ومثناه الأنثى، والسماء ومثناها الأرض، فنبعث هنا عن مثنى سبع فنجدها في السماوات السبع ومثناها سباعية الأرض:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ يَنزِلُ الْأَمْرُ بِبَيِّنَاتٍ لِّعَلَّامُونَ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الغلق: ١٢].

وتتضمن هذه الآية إشارتين: الأولى إلى «القدرة» الإلهية المتصلة بالخلق (لتعلموا أن الله على كل شيء قدير) والثانية إلى «العلم» الإلهي المحيط بهذا الخلق السباعي المثنوي (وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً). فهذه الآية في سورة الطلاق يتكشف معنى الآية في سورة الحجر، فكما أوتي الرسول القرآن أوتي أيضاً السبع المثاني تحقيقاً لمعنى الخلافة الكونية في ما وهبه الله للإنسان بقدرة الخلق «السبع المثاني» وفي ما أهله به من الوعي «والقرآن العظيم». وهكذا يفسر القرآن نفسه بآياته وضمن



وحدثه الكتابية العضوية. ويرتبط تحليلنا لهذه الآية بموضوعات أخرى تمت إلى خصائص القراءة وإلى خصائص النبوة الخاتمة.

ثالثاً: حدّد القرآن أن إبراهيم هو «إمام الناس»: ﴿وَلِإِبْرَاهِيمَ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَتٍ فَأَتَتْهُمُ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وحدد القرآن أن موسى هو «إمام المؤمنين»: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ. قَالَ رَبِّ أَرِنِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ ثُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الاعراف: ١٤٣]. ثم حدّد القرآن أن محمداً هو «إمام المسلمين».

﴿قُلْ أَغْنَى اللَّهُ عَنِ الْعَالَمِينَ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطِيعُكُمْ وَلَا يَطَعُكُمْ قُلْ إِنِّي أُبْرئتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الانعام: ١٤].

إن الإسلام - خلافاً لما اختلط على البعض نتيجة الأحاديث الموضوعة وتشابه بعض الآيات - هو أرقى مراتب الإيمان، فالأنبياء الذين جعلهم الله قائمين على حكمه في بني إسرائيل وصفهم بالإسلام الذي يتسق مع مرتبتهم كانبيااء، ثم يليهم المؤمنون الذين هادوا من بني إسرائيل:

﴿إِنَّمَا أُنْزِلَتِ الْتَّوْرَةُ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكُمُ بَيْنَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ [البقرة: ١٧٧].

أما الآية:

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ: آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلْعَنُوا مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٤].

التي يفهم منها أن الأعراب إذا ادّعوا الإيمان فقد نبههم الله إلى أنهم لم يصلوا إلى



درجة الإيمان (لَمَّا يَدْخُلُ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ)، وأنهم أقل درجة أي مسلمون (ولكن قولوا أسلمنا)، فقد فُهِمَتْ فهُمًا خَاطِئًا، فالأعراب فعلاً قد ادَّعَوْا الْإِيمَانَ ولم يكن الإيمان قد دخل في قلوبهم ومع ذلك وهبهم الله مرتبة الإسلام التي هي أرقى من الإيمان الذي لم يدخل قلوبهم. والسبب هو أمره - سبحانه - لهم بترك الوطن والأهل والخروج جهاداً في سبيل الله فكانت لهم مرتبة الإسلام، بينما المؤمنون من اليهود أخرجوا من مصر للتوطن في الأرض المقدسة ورغد العيش.

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَكَوْنُوا أَهْلَ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

[آل عمران: ١١٠]

فهنالك خروج وجهاد قدَّمه الله في الذكر على «مؤمنون بالله» بمسلكتهم «العملي» جهاداً وخروجاً مما وضعهم في مرتبة الإسلام ولَمَّا يَدْخُلُ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِهِمْ. وتلك «تضحية» فيها الخروج من المال والأهل والوطن وهي أمور يعتبرها الله في حالات أخرى من كبائر الفتن:

﴿لَا يَتَنَبَّهَكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُعْذِلْوْكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوْكُمْ مِنْ دِيْنِكُمْ أَنْ تَبَرُّوْهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ \* إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَلَخَرَجُوكُمْ مِنْ دِيْنِكُمْ وَعَلَاهُمْ عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ قَتَلُوْهُمُ وَمَنْ يُؤْلَمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [ممتحنة: ٨-٩].

ثم ما كان الله ليضع خاتم النبيين والمعاهد منهم بشهادته - سبحانه - في مرتبة أقل من مراتب الأنبياء الذين عاهدوه، وبايعوه.

رابعاً: وهو المؤيد بنصر الله له في «الآخرة» تماماً كما في الدنيا بما يعني أن له شأنًا هناك في الآخرة خلافاً لشأن الآخرين:

﴿مَنْ كَانَتْ يَطْلُنُ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَ كَيْدُهُ مَا يَعْبَثُ \* وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ يَتَذَكَّرُ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾ [هجم: ١٠-١١].



وهذا المعنى يهدي الله له من يريد، إذ يتصل بخلافة محمد الكونية التي تُمارس في أرقى حالاتها - حين تكون - أرقى حالات الوجود.

خامساً: وهو «المكلف» على وجه الحقيقة والتعيين بالقتال وله من الخصائص ما يتكافأ مع هذا التكليف وإن حُجبت هذه الحقيقة عن الناس:

﴿فَقَنْبِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ [النساء: ٨٤].

فالقتال بالنسبة إلى المؤمنين «تحريض» والقتال بالنسبة إلى محمد «تكليف»، والتكليف من سعة المكلف «لا نكلف نفساً إلا وسعها». وقد وسعت نفس محمد ما كلفها الله به.

سادساً: ثم هو «أحمد» - اسماً - دالاً على خصائصه «سلطان اسمه» الذي يجمع كل هذه المقومات من الخلافة الكونية «السبع المثاني والقرآن العظيم» وامتثال الأنبياء لنصرته وخاتمته لهم وإماميته للمسلمين، لذلك كان من بينهم هو نبي «الأرض المحرمة» التي استصفاها الله لذاته «المنزهة» وأرقى مرتبة من الأرض «المقدسة» التي تجلّى الله فيها بصفاته المقدسة وحاكميته الإلهية:

﴿إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذَا الْبَلَدِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ \* وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِىٰ لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ \* وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ مَا يَبْتَغُونَ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشمل: ٩١-٩٣].

تلك خصائصه الكونية، فما كان للسيد المسيح عيسى بن مريم من بعد إلا أن يبشّر بمن هو «أقوى منه»، فبشّر به مستخدماً حقيقة اسمه «أحمد» وهكذا كان:

﴿وَلَمَّا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ شَيْنٌ﴾ [الصف: ٦].

إن خصائص خاتم النبيين الكونية كثيرة بموجب سلطان اسمه «أحمد»، وقد جهلها



## حاكمية الكتاب البشرية

الناس حين جهلوا مدلولات «الأسماء»، فهو الأقوى من المسيح عيسى وسائر أنبياء الخوارق والمعجزات، ولكنه لم يمارس خارقة ولا معجزة لأن مهمته قد جاءت كخاتمة لـ «الحاكمية الإلهية» و«حاكمية الاستخلاف»، وافتتاح مرحلة «حاكمية الإنسان» المتعلقة «غيباً بالله»، دون محسوسات ومنظورات، ليصل الإنسان إلى معرفة آيات الله في ﴿سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾.

﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَلَمْتَ أَنْ تَبْنِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥].

إن حجب خوارق المعجزات عن خاتم النبيين كما توضح لنا سورة (الأنعام: ٣٥) وكذلك كما توضح لنا سورة الإسراء:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَيُّ أَكْثَرِ النَّاسِ إِلَّا كَعُورًا﴾ ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَكَ لَكَ حَقٌّ فَنَجْعَلْ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَلْبُوعًا﴾ ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَجِيلٍ وَنَحْسِبُ فَتَفْجَرُ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ ﴿أَوْ تُسْقَطُ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا نَسْفًا أَوْ تَأْتِي بِلُحَابٍ مِثْلِ الْإِبْرَةِ﴾ ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ ذُرْهُبٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ بِرُؤْيَاكَ حَتَّىٰ نُنْزِلَ عَلَيْنَا مِثْلَ الْفُلُورِ﴾ ﴿فَلِئَلَّا نَقُولَ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا كَافِرٌ﴾ ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٨٩-٩٤].

نقول، إن حجب هذه الخوارق ليس متأثراً عن مرتبة لخاتم النبيين بأقل من مراتب الرُّسل الذين سبقوا بخوارق المعجزات، (فهو إمامهم والأقوى من بينهم)، وقد بسطنا بعضاً من خصائصه الكونية المتعلقة بسلطان اسمه «أحمد»، ولكن الخوارق قد حُجبت إيداناً بدخول البشرية مرحلة حاكميتها الخاصة، وهي أخطر مرحلة في الخطاب الإلهي. لذلك ختم الله آية حجب المعجزات في سورة الأنعام (الآية: ٣٥) بقوله - سبحانه -: «فلا تكونن من الجاهلين»، لأن العلم بحالة التحول إلى الحاكمية البشرية يقتضي العلم بأن تكون العلاقة مع الله غيبية لا حسية.



ولهذا جاء التعبير في سورة الإسراء، ليؤكد «بشرية» الرسول التي لا يخالطها ما هو فوق خصائص البشر:

﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣].

فهنا ربط بين «التنزيه» لله - سبحانه ربّي - وبين «البشرية»، فاستخدام «التنزيه» لله هنا ارتباطاً بحالة «بشرية»، إنما يستدلّ به على استبعاد متعلقات «التقديس» التي رأيناها في ممارسات الحاكمية الإلهية وحاكمية الاستخلاف، من تدخل الله بالمعجزات الخارقة والتسخير الذي كان لداود وسليمان. فالله هنا منزّه (سبحان ربّي)، ثم يعود الأمر للبشر لا لمتعلقات التدخل الإلهي المقدس (بشراً رسولاً)، وقُدِّمت الصفة البشرية على الصفة الرسالية لتأكيدهما (بشراً - رسولاً).

وكذلك كان احتجاج العرب حين خلت البعثة من خارق المعجزات «أبعث الله بشراً رسولاً»، أي أبعث الله رسولاً لا معجزات له؟ مجرد «بشر»؟ فالاحتجاج هنا لا ينصبّ على مجرد البشرية فقط، فكل الأنبياء بشر، ولكن ينصبّ على بشرية خالصة من المعجزات التي كانت للرسول الذين سبقوه. وما علموا كما لم يعلم غيرهم أن هذه الصفة البشرية مطلوبة لذاتها في هذه المرحلة، حيث تكون علاقة «البشر» بالله علاقة «غيبية» قائمة على تنزيه يتجاوز متعلقات التقديس الأدنى درجة من التنزيه، وهي أرقى علاقة يستهدفها الله - سبحانه - لتكون بينه وبين الإنسان الذي من أجله خلق الكون:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ يُكَلِّمُ شَيْءٌ عَالِمٌ﴾ [البقرة: ٢٩].

ولأن علاقة «الحاكمية البشرية» بالله، هي علاقة «تنزيه» خلافاً لما كانت عليه أوضاع «الحاكمية الإلهية» و«حاكمية الاستخلاف» المرتبطة بالتقديس، فقد خصّ الله الأرض «المحرّمة» بنزول القرآن وظهور خاتم النبيين، وذلك لتعلّق الأرض المحرّمة



بذات الله المنزهة خلافاً للأرض المقدسة التي تتعلق بصفاته، وهذا ما جُمع بيانه في الآيات التالية:

﴿إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّكَ هَـذِهِ الْبَلَدَةُ الَّتِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ \* وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْتَدَى فَلِنَّمَا يَهْتَدَى لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ \* وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿[سمل: ٩١-٩٣] .  
بلدة محرمة - إسلام - قرآن، ثم ﴿فَمَنْ أَهْتَدَى فَلِنَّمَا يَهْتَدَى لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ ثم يعود الأمر لمدى معرفة الإنسان واكتشافه ورويته لآيات الله في الكون غيباً ودون معجزات وخوارق.

قد لاحظنا أن الله سبحانه وتعالى لا يستخدم صفة «التقديس» لمكة بل صفة «التحريم» بينما يستخدم صفة التقديس لأرض المسجد الأقصى، وعليهما معاً صفة «المباركة».

﴿أَوَلَمْ تُمْكِنَ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾ [مقصص: ٥٧].

وكذلك:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا﴾ [الغنكبوت: ٦٧].

وكذلك:

﴿قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤].

وكذلك:

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْيَتَّى الْحَرَامَ قَيْمًا لِلنَّاسِ﴾ [الفائدة: ٩٧].

وكذلك:

﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١].

فصفة التقديس لا ترد بحق مكة قط، وإنما ترد بحق الأرض التي أمر الله بني إسرائيل بدخولها:



﴿يَقُولُ أَذْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١].  
 فمكة حيث كان التنزيل أرض «محرمّة - مباركة»، وحيث المسجد الأقصى أرض  
 «مقدّسة»، والفارق في دلالات المعاني القرآنية كبير بين الاستخدامين قياساً على  
 الكيفية التي خاطب بها الله الملائكة:

﴿وَمَنْ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠].  
 فالتقديس يأتي تالياً للتسبيح، والتسبيح «تنزيه»، فإن نُسبِحَ الله أي «ننزهه» عن كل  
 المتعلّقات. أما التقديس فيربط بالمتعلّقات ذات الخصوصية الإلهية، أي صفة مضافة،  
 كالأرض التي تقدّس لتعلّقها بخصوصية إلهية:  
 ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاحْطَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى﴾ [طه: ١٢].

فالتقديس يتجه إلى المتعلّقات الإلهية، أما التحريم فينتجه إلى الذات الإلهية المنزهة.  
 فإن نقّسَ لله يعني أن ننحني لكل ما يتعلق به من أرض وصفة وقول تماماً كحالة  
 الركوع والانحناء. أما التحريم فأخطر درجة من التقديس، لأن التحريم يرتبط  
 بالذات والتقديس يرتبط بالمتعلّقات. ولهذا دلالاته في التنزيل الخاتم والنبوة الخاتمة،  
 فلا تكون النبوة الخاتمة المهيمنة على كل النبوات إلا في الأرض المحرّمة. ولا  
 تكون قطّ في الأرض المقدّسة، ولهذا لا يجوز إطلاق صفة التقديس على مكة بل  
 صفة التحريم الأخطر درجة، وكما سمّاها الله (الكعبة - البيت الحرام). وهنا نحن  
 أولاء قد أوضحنا الدلالات المنهجية للفارق بين التحريم والتقديس وانعكاساته  
 على الحاكمية البشرية المرتبطة بتنزيه الله. ولهذه الدلالات المنهجية انعكاساتها أيضاً  
 على «التشريع» بين ما هو منتزّل في الأرض المحرّمة ومنتزّل في الأرض المقدّسة،  
 فالذي تنزّل في الأرض المحرّمة يقوم على علاقة «تنزيهية - غيبية» بالله خارجة عن  
 متعلّقات التقديس وخوارقها، مكرّساً «حاكمية الإنسان» باتجاه شرعة  
 «التخفيف»:



﴿ذَٰلِكَ عَذَابٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٧٨] .  
ويخطاب عالمي:

﴿قُلْ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الاعراف: ١٥٨] .







## الفصل الرابع

### خصائص الحاكمية البشرية







فصلنا في ما سبق من صفحات خصائص الحاكمية الإلهية ثم طرحنا الإطار العام للحاكمية البشرية التي أسسها خاتم النبيين، وقلنا إن جوهرها هو التعلّق الغيبي بالله دون معجزات خارقة ودون تسخير للإنس والجنّ والرياح.

هذا التعلّق الغيبي بالله - سبحانه - هو أخطر مرحلة في تطوّر علاقة البشرية بالله، حيث يمارس الإنسان مسؤوليته الوجودية بأقصى ما لديه من قدرات الوعي، سمعاً وبصراً وفؤاداً.

هنا عليه أن يكشف «فعل الله» في الوجود والحركة «غيباً» وخلافاً لما كان عليه الأمر في إطار الحاكمية الإلهية وحاكمية الاستخلاف، وأن يتفاعل مع فعل الله الغيبي، وأن يدرك أبعاده وأن ينفذ إلى «ما ورائياته»، فلا تكون العلاقة بـ «التشريع» - مثلاً - علاقة نصوص بل علاقة «اكتشاف لما وراء النصوص»، ولا تكون العلاقة بـ «قصص» الأنبياء علاقة مع مجرد «سير ذاتية»، بل علاقة بما تتضمنه هذه القصص وترمز إليه. ولا تكون العلاقة مع القرآن مجرد ترتيل لفظي، ولكن علاقة استيعاب لهذا الكتاب بوصفه منهجاً للوعي المعادل موضوعياً للوجود الكوني وحركته، فيه ومن خلاله يلج الإنسان آفاق المعرفة الكونية التي تهين لممارسة حاكميته في الأرض.

ولأن العلاقة بالله قد تحوّلت إلى علاقة «غيبية»، أصبحت مدركات الإنسان الموضوعية وقوى وعيه الذاتية هي دلالة حاكمية البشرية. فبقدر ما حُجبت المعجزات والتسخير الخارق تعاضمت مسؤولية الإنسان الوجودية وفي كل الأبعاد، وتأكّدت حرّيته في الاختيار ضمن المنهج القرآني الكوني الذي يتفتّح ويتكشف عن مُتاحات معرفية ترقى إلى ما وصل إلينا بالقياس وما شابهه.

إن حاكمية الإنسان تؤدّي إلى بناء الحضارة الكونية بأبعادها الغيبية والإنسانية



والطبيعية، حيث لا يتحوّل الغيب إلى «لاهوت» يستلب الإنسان والطبيعة، ولا يتحوّل الإنسان إلى «وجودية عبثية إباحية فردية»، ولا تتحوّل الطبيعة إلى «جبريّة ماديّة». فكلّ يتدامج في جدلية الغيب والإنسان والطبيعة.

هنا نرى آيات الله في أنفسنا وفي الآفاق، مؤكدين وجود الله «الغيبى» في الفعل الإنسانى وفي الحركة، دون حلوليّة في المكان، فقد تنزّه الله عن ذلك، ودون خارق معجزات فقد أغلقت مرحلة الحاكمية الإلهية، ودون تسخير خارق، فقد أغلقت مرحلة حاكمية الاستخلاف.

هذا المنحى «الغيبى» في العلاقة بالله هو الذي حكم تجربة الأميين العرب منذ بدايتها. كانت معركة «بدر الكبرى» التي خاضتها القلّة المؤمنة الواثقة «غيباً» بنصر الله، وأوضحنا كيفية تدخّل الملائكة المردفين «الغيبى».

إن من خصائص مرحلتنا التي بُدِئَتْ بالنبوة المحمدية التي اختتمت مرحلة كاملة قبلها هي مرحلة الوضعية العلمية وانزواء التفكير الغيبى وتطوّر ملكات الإنسان الذاتية، وتضخّم إحساسه بقدراته المستقلة عن الفعل الإلهي.

هذه العقلية التي افتتح محمد عهد الجدل معها لا يمكن أن يكون مدخلها هو المدخل نفسه الذي طرقه الأنبياء من قبل مع شعوبهم أي التسليم بالخوارق الغيبية، وإنما مدخلها هو الانتقال من مُدركات النظر والسمع إلى مرحلة الحكمة التي تنفذ عبر الفهم الدقيق للعلاقات بين الأشياء، إلى رؤية فعل الله في حركة الطبيعة والتاريخ فعلاً غير مباشر ولكنه كامل التأثير.

لهذا السبب بالذات حُجبت عن محمد آيات الخوارق وأُعطيَ عوضاً عنها لا النبوة فقط ولكن الحكمة أيضاً بأسمى معانيها، ليسمع البشر أجمعين من خلال الحكمة:

﴿وَلِنْ كَانَ كَبَّرَ عَلَيْكَ إِعْرَاشُهُمْ فَلِنْ أَسْتَقَلَّتْ أَنْ تَبْلُغَ نَفَقَا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمَا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَاتٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ \* إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ



وَالنَّوْفَ بِمَعْنَاهُمْ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ \* وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا اللَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿[الأنعام: ٣٥-٣٧].

قد ختم محمد النبوة:

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَٰكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].

ولكنه فوق ذلك فاتح عهد العالمية التي ترث عنه الحكمة بشموليتها في المنهج الكوني عبر استمرارية التاريخ البشري:

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ \* ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُذِنُ اللَّهُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣١-٣٢].

لقد جاء محمد في أول المفترق بين مرحلتين تاريخيتين في عمر البشرية، بدأت الأولى بآدم وانتهت لديه، وبدأت الثانية به وانتهت بنهاية العالم.

فالمرحلة الإيمانية الأولى كانت لا ترى فعل الله إلا في ما هو مائل باتخاذها شكلاً مباشراً في سنن الطبيعة. أما التجربة المحمدية الإسلامية فقد جاءت لتنتقل بالمستوى الثاني من الإيمان باتجاه الإسلام وعبر الجمع بين القراءتين، أي القراءة بالله بوصفه خالقاً، والقراءة بالقلم الموضوعي:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ \* خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ \* اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ \* الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ \* عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ \* كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ \* أَلَمْ يَرَهُ أَنْ خَلَقَهُ مِنْ طِينٍ \* أَلَمْ يَرَهُ إِذَا صَلَ \* أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْمَذْهَبِ \* أَوْ أَمَرَ بِالْقَوَى \* أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى \* أَلَمْ يَرَهُ إِذَا بَلَغَ الْإِنْسَانَ \* نَسِيتَ كَذِبَهُ خَالِقَهُ \* فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ \* سَنَكْفِيهِ الزَّيْنَةَ \* كَلَّا لَا تَطِعَهُ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١-١٩].

فهنا يتحقق التفاعل بين الغيب (اقرأ باسم ربك الذي خلق) والوجود الكوني



وحركته المعرف بقوانين العلم والقلم فيتم الجمع ما بين المطلق الغيبي والسببية الظاهرة.

الإسلام المحمدي هو مقدمة البشرية، لتعرف طريقها إلى الله عبر التعامل مع السنن الوضعية، وتكتشف الله في المادة وفي الحركة دون حلولية ودونما ورائية ودون ارتداد إليه بمبدأ المادة الناقصة. إنها من أعظم المراحل وأغناها في التاريخ الإيماني للبشرية وقد جاء افتتاحها بعبارة (اقرأ) وانتهت إلى الجمع بين القراءتين، وهذا هو جوهر الحقيقة المحمدية الكونية. وهي حقيقة «تورث» والارث عن الأصل المتلقي أي عن محمد، والذي يملك حق التورث هو الله لمن يصطفي من عباده. ولها مواصفات شتى على أنواع ثلاثة: أولها ظالم لنفسه وآخرها سابق بالخيرات والثاني وسط بين اثنين. وارث الحقيقة يخرج معجوناً في لُحمة العصر. فعلاقة من يلي محمداً بالكتاب لا تكون علاقة نبوة ولا علاقة جديد ولا علاقة رسالة ثانية ولا ثالثة، وإنما علاقة تورث يتفاعل فيها وحي الكتاب مع شخصية العصر حافظاً لاستمرارية الحكمة والمنهج الإلهي.

إن من يفهم حكمة انقضاء مرحلة النبوات يفهم تماماً أن الله قد جعل إرادته في إعادة اكتشاف القرآن وفهمه ضمن كل مرحلة من مراحل التطور البشري بما ينسجم والخصائص الفكرية لشخصية المرحلة الحضارية. وقد ضمن القرآن وحي كل مرحلة كنور تنضج به حكمة المنهج الإلهي وتطبيقاته الكونية.

قلنا: إن محمداً قد جاء في أول المفترق بين مرحلتين تاريخيتين في عمر البشرية: مرحلة النبوات التي ارتبطت بالعلاقة المباشرة مع الغيب والتعامل المباشر معه، ومرحلة تطور الإنسان نحو الأساس الوضعي لحركة الأشياء وعلاقاتها، بما جعل الإرادة الإلهية تتخذ شكلاً غير مباشر لا يصله الإنسان بقنوات الحس، وإنما يرقى إليه بالحكمة والتجرد واستخدام كل ملكات الوعي الإنساني.



## خصائص الحاكمية البشرية

كان للمرحلة الأولى صراعاتها لتثبيت المعاني المطلقة لإرادة الله ضمن عقلية الإحياء الوثني والتعدد. كذلك كان للمرحلة الثانية صراعاتها لتثبيت المعاني نفسها، ليس بوجه عقلية الإحياء الوثني والتعدد ولكن بوجه عقلية السببية المفرطة.

﴿وَلَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَ طَافٍ﴾ \* أَنْ رَأَاهُ اسْتَفْهَى \* إِنَّكَ إِلَهٌ لَكَ الرَّحْمَنُ ﴿[العلق: ٦-٨].

قد جاء محمد (ص) لينقل قومه من العقلية الإحيائية التعددية إلى عقلية الإسلام الخاص، ولكن دون أن يجعل علاقتهم مع الله تتخذ شكل الآيات والخوارق المباشرة. كانت نقلة صعبة للغاية، ولم يمتد عمر التجربة فيها لأكثر من ثلاثة وعشرين عاماً.

كانت القبائل العربية كجماعات بني إسرائيل تعيش تكوينا عقلياً خاصاً بتلك المراحل الأولية. لم يكن الإله يتمثل في ذهنيته كقدرة محتجبة، وإلا لكان أضعف من باقي الموجودات التي تعطي حرارتها كالشمس، أو ترمجر كالرعد، أو تنور كالرياح، أو تلمع من بعيد كالنجم. وإذا احتجب الإله بقدسيته كما هو الرجل العالي المقام الذي لا يظهر كثيراً للبشر، فإن تلك العقلية لم تكن تقبل منه أن يكون احتجاجاً كلياً، بل كان عليه أن يؤكد وجوده بالفعل المباشر في الحركة الطبيعية. لذلك طلبت الأقوام من الأنبياء المعجزات والآيات الخارقة بل إن بني إسرائيل قد طلبوا رؤية الله نفسه.

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَأَيْتَ اللَّهُ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَأَتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٥٣].

لو ظل الله غائباً بوجوده عن الفعل المباشر في الطبيعة فسرعان ما ينصرف العقل الإحيائي إلى توزيع وجوده على قوى الطبيعة كما فعل قدماء اليونان، أو على عدد من الأصنام كما فعلت كثير من الشعوب فيتخذونها معبراً لمخاطبته. وقد جاء ذلك التجسيد الإحيائي الغيبي ثمرة مباشرة لانعدام الفهم الطبيعي لخصائص الموجودات، ولانعدام الوعي المفهومي لنظامها العام. كان على الإله أن يجلب الرزق وأن يغيث



بالمطر وأن ينتصر في المعارك وإلا استبدل فوراً بتجسيد آخر. تلك كانت حالة عقلية لها مفهومها الخاص للألوهية وأثرها في الوجود. وفي ظل تلك الحالة ظهرت الحاكمية الإلهية وحاكمية الاستخلاف.

تعامل الله من قبل مع الأنبياء وأقوالهم عبر هذا المفهوم وضمن تلك الحالة العقلية، فنفى الله عن نفسه التعدد في شكل ما ظنه به البشر من تجسيدات مختلفة في آلهة متباينة، وأوضح أنه خارج زمان الأشياء ومكانها، ولكنه ممسك بها وبزمانها وبمكانها. وكان لا بد في حال تلك العقلية من إثبات الأمر بشكل يقهر الزمان والمكان عياناً وبياناً، فجاء التجاوز الإلهي الإرادي لسنة الطبيعة والقهر المباشر وكذلك جاء العذاب من جنس الفهم عذاباً حسيماً يتجاوز بقهره سنن الطبيعة نفسها فارتفعت قشرة الأرض بأهل سدوم ثم هوت بهم.

كان الإيمان بتأثير القوى الغيبية عميقاً وشاملاً ومسيطرأ في تلك المراحل التاريخية الأولية. ولكنه كان إيماناً مصروفأ إلى غير حقيقته. فتعامل الله مع طبيعة ذلك الإيمان صارفأ له نحو حقيقته وراجعأ به إلى ذاته.

اقتضى ذلك التحول زماناً طويلاً وهو في حال بني إسرائيل الفترة من بعث موسى إلى المعركة ضد جالوت وحتى حينها لم ينضج التحول بعد، أما على مستوى التجربة المحمدية الإسلامية العربية، فقد أعلن الله نفسه منذ أول يوم إلهاً محتجباً يمارس تأثيره الوجودي الكلي داخل كل فعاليات الوجود ودون لجوء لما يخرق من الفعل، وكان على العرب أن يستجيبوا لهذه التجربة بعنوانها في الدمج بين القراءتين، أن تبصر الله في الزمان والمكان، وأن ترى نفسك قائماً به دون أن تسأله رؤية جهرية ودون أن تسأله المعجزات. بذلك أعطى الله محمداً تجربة ما نالها قبله أحد، وأعطى العرب تجربة ما نالها قبلهم أحد. تأتي التجربة المحمدية الإسلامية العربية بذلك كأوثق تجربة بشرية لله وكأقرب تجربة إليه. نبيها خاتم الأنبياء وأمتها خير الأمم. ولا منازعة ولا تفضيل ذاتي فالأمر كله من الله.



خاتم النبیین:

قد التحق محمد ﷺ بالملا الأعلى قبل أربعة عشر قرناً، ولم يسم خليفة عنه، ولم يحدّد إماماً يليه وإنما ورد عن حديث (الغدير) في الولاية على أن قرائن التوجيهات الدالة على خلافة أبي بكر حُمِلت أكثر من حقائق مقصدها، إذ إن كل ولاية على السلطة ليست من أمر الرسول الخاتم المستمدة من الله والتي تقع ضمن دائرة (أولي الأمر منكم) والرسول هو الأدرى بمنهج الله وسنته قولاً وفعلًا مطابقة للوحي المطلق. وما ذلك إلا لأن الحاكمية هي (حاكمية بشرية) تعود إلى البشر، ليست (حاكمية استخلاف) فيسمّي الله الخليفة عبر نبيه كما سمّى طالوت وداود، وليست (حاكمية إلهية) تؤدي دورها المباشر عبر تعاقب الأنبياء فقد ختمت النبوة.

عاد الأمر كله إلى البشر (الحاكمية البشرية) إلى جانب القرآن الذي يستهدون به، وهنا نجيب عن التساؤل الكبير:

لماذا لم يمنح الرسول مؤسسات للدولة الإسلامية ويقرر نُظْم وأشكال الحكم فيها؟ ولماذا لم يورثها تفسيراً شاملاً للقرآن؟ ولماذا لم يستخلف من يليه؟.

نجيب بإيجاز: لو فعل الرسول ذلك لقضى على مفهوم «الحاكمية البشرية» حيث تعود السلطة إلى الأمة بنصّ الآية:

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [فلق: ٣١].

هنا قضى الله بطاعته (أطيعوا الله) ثم قضى بطاعة الرسول (وأطيعوا الرسول) ثم قضى بطاعة ثالثة هي طاعة أولي الأمر، ولم يجعل من أولي الأمر هؤلاء أنبياء يتعاقبون، فقد خُتمت النبوة وانتهت حقبة الحاكمية الإلهية، ولم يجعلهم مستخلفين عنه - سبحانه - في الأرض فيسمّيهم، فقد انتهت حقبة «حاكمية الاستخلاف»، وإنما ردّ أمرهم إلى الاختيار البشري الحر (أولي الأمر منكم).



لم يقل الله أولي الأمر «عليكم» فيوجب الطاعة لكل مغتصب، يستعلي على الناس (عليكم). ولم يقل الله أولي الأمر «فيكم» فيوجب الطاعة لذوي النفوذ والمراتب «في» المجتمع. جعلها الله خياراً حراً (منكم)، ولهذا لم يتدخل خاتم النبيين ليسمي من يخلفه، وكان يدرك لحظات رحيله إلى الملاء الأعلى. فلو سمى خاتم النبيين خليفة له لوجبت علينا الطاعة، غير أن ذلك كان سيناقض معنى «أولي الأمر منكم» ويناقض منهج الحاكمية البشرية كله، وهو المنهج الذي جاء خاتم النبيين لإرسائه وتوطيد دعائمه.

قد ميز الله بين طاعة الرسول وطاعة أولي الأمر «منا» فلم يدرج طاعة الرسول ضمن طاعة أولي الأمر، وقد كان الرسول ولي الأمر في وقتها، وطاعته واجبة على المسلمين، بل هو الأولى بنا من أنفسنا:

﴿الَّذِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

وما كان هذا التمييز إلا لأن طاعة الرسول من طاعة الله، وبحيث لا تتداخل طاعتنا للرسول مع نسقنا الذي أراده الله لنا في «الحاكمية البشرية»، فلو لا الاتجاه نحو هذه الحاكمية البشرية وتحقيقها في الأرض لحصر الله أمر الطاعة فيه - سبحانه - وفي الرسول فقط ولم يُشير إلى أولي الأمر - بعد ذلك - ليكونوا «منا» وباختيارنا الحر. أما في فترة وجود النبي فقد رد الله أمر الاحتكام إليه وإلى الرسول فقط «فإن تنازعتم في شئ، فردوه إلى الله والرسول» ولم يُشير الله هنا إلى «أولي الأمر منكم».

إذن في مرحلة الرسول تكون الطاعة لله وللرسول، وبعد التحاق الرسول بالملاء الأعلى تسري الحاكمية البشرية فتكون لأولي الأمر منا اختياراً حراً.

قد أسس خاتم النبيين بدايات هذه المرحلة للحاكمية البشرية فلم يتدخل - بما له علينا من واجب الطاعة الإلهية - في شؤون حاكميتنا البشرية، فلم يضع ضوابط لفهم القرآن ولم يفسره، وترك القرآن غصاً بين أيدينا من بعد إعادة الترتيب الوقفي لآياته



لننتقل به - من خلال وعينا - نحو آفاق المعرفة ككتاب إلهي يعادل بوعيه الموضوعي الوجود الكوني وحركته.

كذلك لم يتدخل خاتم النبيين في صياغة مؤسسات الحكم والدولة ويقرّر ضوابط الشورى والاختيار، بل ترك الأمر للحاكمية البشرية.

فخاتم النبيين ليس مؤسساً لدولة، وليس مفسراً للقرآن، لأن ذلك من خصائص الحاكمية البشرية التي جاء خاتم النبيين ليحوّل التاريخ الديني باتجاهها، من بعد أن كانت هذه الحاكمية «حاكمية إلهية» ثم «حاكمية استخلاف».

كانت علاقة الرسول علاقة توجيهية مباشرة بالمجتمع العربي الأُمّي، يستمد سلطاته من الله. نعم يستشير من حوله ولكن دون تأسيس دستوري لمجلس الشورى، ثم إن نتائج هذه الشورى بالنسبة إليه «غير ملزمة» تماماً كما أوضح الله:

﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ إِنَّتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾  
[آل عمران: ١٥٩].

من أولي الأمر منكم إلى قاعدة السلم كافة:

قد أبصرنا كيف جعل الله الأمر من بعد النبي بيد البشر وبالاختيار الحر (منكم) وأطلق للناس كيفية التأسيس الدستوري لهذا الاختيار الحر دون غلبة تسلطية أولي الأمر (عليكم) ودون تميّز اجتماعي (أولي الأمر فيكم) سواء كان هذا التمييز كهنوتياً أو سياسياً بما يدعيه بعض الفقهاء من مرجعية وسلطة وما يدعيه البعض من نسب نبوي بحجة الأئمة المعصومين من آل البيت، ومن هنا خطأ دلالي لفظي كبير، قال محمد تعني من تبع سنته وهم المسلمون، قال إبراهيم تماماً «اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم» أما أهل محمد فهم أهل بيته المباشرين، ولا يشمل ذلك سوى زوجاته اللاتي أشار الله إليهن بأنهن أمهات المؤمنين



وربطهن بالنبي مباشرة ثم جعل ولايته عامة على المسلمين:

﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولَئِكَ الْأَرْحَامُ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَيْكُمْ أُولِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الأحزاب: ٦].

ولذلك حرم الزواج منهن على غيره من بعده:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَبْرِينَ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَقْسِمِينَ لِخَبَرِكُمْ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَعِجَ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَعِجَ مِنْ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلْنَهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِحُوا زَوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣].

فأهل البيت ينتهون لدى أمهات المؤمنين والذرية من ظهر الرسول أي فاطمة الزهراء وبنيتها، ولكن لا عصمة وإمامة لأبناء فاطمة من علي، فهؤلاء يندرجون ضمن ولاية الرسول على جميع المؤمنين، ويرجع السبب إلى أن العصمة لا تتوافر إلا في من يكون رجلاً من ظهر النبي مباشرة، وهذا ممتنع بحكم خاتمية النبوة والرسالة، وهي مسألة أوضحها لنا الله في وضع زكريا الذي كان خاتماً للنبوة في بني إسرائيل، فحين استدركه الكبر وعرف أن امرأته عاقراً لا تنجب أدرك أن نبوة بني إسرائيل قد ختمت به، وأنها ستتحول إلى النبي الأمي تنفيذاً لوعده الله لبني إسرائيل في الجبل، ولكن غلب على زكريا الرغبة في الولد وهو مدرك للقضاء الإلهي، لهذا دعا ربه دعاء «خفياً» يجمع بين الرغبة ومعرفة القضاء الإلهي، فلو كان له ولد لورث العصمة والنبوة:

﴿كَهَيْعَ \* ذَكَرْتَنِي رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا \* إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ يَدَّاءَ خَفِيًّا \* قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا \* وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَثَتِي وَكَانَتِ أُمَّرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا \* يَرِنِّي وَيَرْثُنِي



بِإِلِّيقُوبٍ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا \* يَرْزُقْنَا إِنَّا نَبْتَرُكَ يُقَالِمُ أَسْمُهُ يَحْيَى لَم يَجْعَلْ لَهُ مِنْ  
بَدَلٍ سِوَا \* قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ آمْرًا قَاعِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ  
عِتِيًّا \* قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ \* وَقَدْ خَلَقْتَنِي مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُنْ شَيْئًا \* قَالَ  
رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ لَيْسَالٍ سِوَا \* فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ  
مِنَ الْيَحْرَابِ فَأَوَّحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا \* يَٰحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَاهُ  
الْكِتَابَ صَبِيًّا \* وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَتْ تَقِيًّا \* وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا \*  
وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿[مريم: ١-١٥].

ولكن هناك شرط إلهي لا يطل مفعول القضاء من ختم نبوة بني إسرائيل وهو ألا  
يستشعر بحى شهوة الجنس والنساء فتستمر الذرية والسلالة النبوية المعصومة، فيحى  
ليس عقيماً أو ناقص التكوين لكنه حصور عن الشهوة والنساء:

﴿هَٰذَاكَ دَعَا رُكْرِبًا رَبَّهُ. قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ \* فَنَادَتْهُ  
الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَاهِمٌ يُّصَلِّي فِي الْيَحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا  
وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿[آل عمران: ٣٨-٣٩].

وهذه الحصورية خلو من الاستشعار الجنسي تماماً كحال مريم العذراء:

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا  
يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧]. \*

فادعاء عصمة الأئمة انتساباً إلى خاتم النبيين يتناقض مع ختم النبوة من ناحية  
﴿فَمَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ \* وَكَانَ اللَّهُ يَكُلِّ شَيْءٍ  
عَلِيمًا ﴿[الأحزاب: ٤٠]. ويتناقض مع منهج الحاكمية البشرية من ناحية أخرى، فالقول

\* يرى المؤلف بناءً على تحديده لمفهوم المس في كتابه العالمية الإسلامية الثانية، المجلد ١ ص ٥٥، أن مس  
غير لمس، فالمس يعني التفاعل العقلي والوجداني، لذلك عندما قالت مريم ﴿وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾ فالآية  
تعني أنها لم تكن تنفعل عقلياً ووجدانياً بما ينفعل به البشر من ناحية الجنس. (المحقق)



بالأئمة المعصومين أو ولاية الفقيه هو ابتداءً لكهنوت يماثل الكهنوت الكنسي ولا علاقة لمثل هذه المفاهيم بمنهجية القرآن المعرفية.

كانت علاقة الرسول علاقة توجيهية مباشرة بالمجتمع العربي الأمي، يستمد سلطانه من الله، نعم يستشير من حوله ولكن دون تأسيس دستوري لمجلس الشورى، ثم إن نتائج هذه الشورى بالنسبة إليه (غير ملزمة) تماماً كما أوضح الله:

﴿فِيمَا رَحِمْنَا مِنْ أَلْفٍ لَيْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾<sup>\*</sup>  
[آل عمران: ١٥٩].

شملت العلاقة «التوجيهية» كل النواحي المتعلقة أساساً بتوطيد الدعوة في المجتمع العربي الأمي مع تأسيس القاعدة البشرية والجغرافية المسؤولة عن حمل الدعوة والاستمرار بها، أي تأمين وضعية الإسلام في «قاعدته» العربية بحكم الآية:

﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

فالمجتمع العربي الأمي هو «قاعدة الإسلام» الذي يتسع متدرجاً لجميع الأميين<sup>(١)</sup> (غير الكتابيين) في العالم بموجب سورة الجمعة، ثم يتسع للعالم كله، ظهوراً على الدين كله، بموجب سورة التوبة والفتح والصف. فكان لا بد من تأمين «القاعدة - الأساس»، القاعدة التي منها ينطلق الخطاب لجميع الأميين ثم للعالم.

ومن أجل توفير هذه القاعدة كانت سرايا الرسول وغزواته وإرسال المبعوثين وتنظيم الجهاد وتغطية نفقاته. ومع ذلك لم يمضِ الأمر إلى تأسيس «نموذج دولة» فذاك من خصائص الحاكمية البشرية، وعلى النهج نفسه لم يورثنا الرسول تفسيراً قاطعاً لآيات الكتاب.

\* الأمي بالنسبة إلى المؤلف هو غير الكتابي، لمزيد من التوضيح راجع كتابه العالمية الإسلامية الثانية، المجلد الأول (١٥٢ - ١٦١) (المحقق).



## خصائص الحاكمية البشرية

إذن فالذين يقولون بأن «دولة المدينة» تُعدّ نموذج الدولة الإسلامية مخطئون في فهم مهمة خاتم النبيين وطبيعتها، إذ لم يميزوا بين مقتضيات تأمين «قاعدة» الدعوة وإرساء منهج للحكم، فخاتم النبيين لم يكن «رأساً للدولة» ولم يؤسس دولة، ولم يضع ضوابط لفهم القرآن واستيعابه، وإنما كان مؤسساً للحاكمية البشرية حين أعطى تلك المرحلة «وحيها» الخاص بها من الكتاب:

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [فطير: ٣١].

فهنّا تعيين وتحديد لوحي يتصل بالمرحلة التأسيسية، ثم كان الإطلاق باتجاه الحاكمية البشرية:

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُذِنُ اللَّهُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فطير: ٣٢].

## المعرفة القرآنية والتوريت والعبودية

هؤلاء الورثة، وهم على أنماط ثلاثة، أعلاهم (سابق بالخيرات) مرتبط بعالم الأمر الإلهي (بإذن الله) وأوسطهم (مقتصد) دون مستوى السابق بالخيرات، وأدناهم (ظالم لنفسه) يرتبطون جميعاً برباط العبودية لله، سواء على مستوى أمره المنزّه أو إرادته المقدسة أو في الحد الأدنى مشيئته المباركة.

إنه مع تقديري وتفهمي التام للكيفية المنهجية العلمية الاستقرائية التي يطرح بها محمد أركون قضايا التجديد وكذلك المنهجية الموضوعية لمحمد عابد الجابري ونزوعنا جميعاً للتحوّل بالدين من أيديولوجيا إلى معرفة منهجية، إلا أن هناك بعداً في قراءة القرآن لا ينال إلا بالعبودية لله، حيث لا يكفي مجرد المنهج العلمي أو التفهم العقلاني مهما تعددت مداخله.



فمن خاصية القرآن أنه كتاب يحتوي على «المكنون» وقد تلقاه خاتم النبيين مستدر كاً لمعانيه المكنونة من «لادن حكيم عليم» ﴿وَلَيْكَ لَتَلَقَّى الْآفِرَاتِ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [الشمل: ٦٠].

فهذه اللدنية تستيع العبودية لله بكيفية ما كان عليه العبد الصالح الذي أوكل الله إليه مهمة ترشيد موسى ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَاتِيَهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَهُ مِنَ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]. هذا المكنون الذي لا تلقاه إلا من طهرت نفسه وأخلص الاعتقاد في العبودية لله: ﴿إِنَّهُمْ لِقُرَّانٌ كَرِيمٌ﴾ \* في كِتَابٍ مَكْنُونٍ \* لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ \* تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْمَلَكِينَ﴾ [الواقعة: ٧٧-٨٠] والمس عقلي وجداني وهو غير اللمس العضوي باليد ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ أَتَقَوُّ إِذَا مَسَّهُمْ طَلَيْفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الاعراف: ٢٠١] ، أما اللمس: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ .

فدلالات المفردة القرآنية ذات مصطلح محدد خلافاً لما درج عليه العرب في بلاغتهم، ولعدم تبين هذا الفارق في الاستخدام الإلهي للغة حبس المفسرون الناس عن تناول القرآن دون طهارة جسدية، والمعنى هنا ينصرف إلى طهارة النفس لتلقى المكنون من لدن الله، وصفة هؤلاء ليست المتطهرين بالوضوء والغسل، ولكن (المطهرون) في ذاتهم حيث يندرجون في صفات عباد الرحمن

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ \* وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا \* وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا \* إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ \* وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا \* وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا \* يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهْكًا \* إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ



حَسَنَتْهُ وَكَانَ اللَّهُ عَظُومًا رَحِيمًا \* وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَبُذَّبُ إِلَى اللَّهِ مُتَابًا \*  
وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا \* وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ  
رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا \* وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا  
فَرَةً آغْنِنِي وَأَجْعَلْ لَنَا وَلَدَيْنِ إِمَامًا \* أُولَئِكَ يَجْزُونَ الْفُرْقَةَ بِمَا صَبَرُوا  
وَيُلْقُونَ فِيهَا بَئِيعَةً وَسَلَامًا \* خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿[مغفران: ٦٣-٧٦].

فالقرآن كتاب إلهي كوني محيط ومطلق ومعادل لإطلاقيه الوجود الكوني وحركته،  
يستوعب كل المناهج البشرية في عالم المشيئة الموضوعي المرئي والمضمّن، ولكنه  
يتجاوزها باتجاه كوني تتبدّى فيه الإرادة الإلهية، ومن فوق الإرادة الأمر الإلهي ولهذا  
جاء الترميز القرآني بالألف لعالم الأمر الإلهي المنزه واللام لعالم الإرادة الإلهية المقدسة  
والميم لعالم المشيئة الإلهية المباركة التي هي مناط عقلانيتنا ومناهجنا العلمية  
وفلسفاتنا (أ. ل. م). وقد أفردنا لرمزية الحروف في مطلع السور بحثاً خاصاً\*.

قد أمرنا بالتعامل وبمنهجية علمية وفق مقتضيات الفكر في علم المشيئة وذلك بما  
أوضحناه حول (الجمع بين القراءتين) ليأخذ العقل الإنساني بما يستدركه بالمنطق  
الموضوعي مع نفي اللاهوت والوضعية معاً، ولهذا كانت مقاربتنا لرشدية الجابري  
وعلمية أركون وحتى خلدونية الدكتور محمد جابر الأنصاري.

ويظل مدخل العبودية قائماً، على الأقل على مستوى الظالم لنفسه، فالله لا يعطي  
علم القرآن وهو علم لدني لمن يتوسل به الدنيا ويبرر به المظالم.

إذن لم يترك لنا خاتم النبيين «نموذج دولة» إسلامية نحتذي به، فذلك من خصائص  
«الحاكمية البشرية».

كذلك لم يترك لنا خاتم النبيين «تفسيراً للقرآن» فذلك من خصائص «وحي  
الحاكمية البشرية» المتفاعلة مع الكتاب عبر صيرورة الزمان والمكان.

\* البحث موجود على شكل مخطوط ضمن قائمة مؤلفات الحاج حمد غير المطبوعة بعد.



على هذا يكون من مهمة الحاكمية البشرية أن تبتدع الأنماط الدستورية لأشكال الحكم التي تستجيب لمشكلاتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، على ضوء متغيرات الواقع، وبمعزل عن ادعاءات الحاكمية الإلهية وحاكمية الاستخلاف والإمامة المعصومة بعد ختم النبوة.

وعلى هذا يكون من مهمة الحاكمية البشرية استمداد المرجعية القرآنية عبر مناهجها المعرفية المتنوعة وحقوقها الثقافية المختلفة بوصف القرآن وعياً يعادل الوجود الكوني وحركته.

هنا تتسع دائرة «التصرف البشري» بالقدر الذي تتسع به مداركنا ومفاهيمنا، وتتغير استنباطاتنا بالقدر الذي تتغير به الأزمنة والأمكنة، وصولاً إلى تأصيل «منهج الهدى ودين الحق».

ولا نريد في هذا الفصل أن نعرض لبعض الآراء التراثية التي جعلت من خاتم النبيين مؤسساً لدولة، أو مفسراً للقرآن بحكم ما أوكل إليه من إبلاغ وتبيين للذكر. فقد أسس خاتم النبيين كياناً هو أكبر من الدولة، فالآلاف الشخصيات التاريخية في العالم قد أسست دولاً ووضعت نماذج دستورية، ولكن ليس من بينها من أسس «مجتمع دعوة عالمية»، فاختصار مهمة خاتم النبيين إلى مستوى الأفراد التاريخيين هو نوع من التقوّل عليه ناتج عن عدم فهم لمهمته.

كذلك يجب أن نميز بين تبليغ الرسول للدعوة وتبيين الذّكر من جهة، وتفسير كَلِيّة القرآن من جهة أخرى. فخاتم النبيين بوصفه قائماً على تأسيس «مجتمع الدعوة» كان عليه أن يعطي تلك المرحلة «وحيها الخاص بها» من الكتاب، كما نصّت على ذلك سورة فاطر (الآية ٣١) نصاً مطلقاً، وخصوصاً أن الله قد أمرنا بطاعة الرسول اقتراءً بطاعته هو - سبحانه وتعالى - علماً بأن «تبيين» الذكر لم يكن فقط شرح مدلولات القرآن للأُمّيين العرب ولكن لكل ورثة الكتب السماوية،







**قَاعِدَتَا الشُّوْرَى وَالسَّلَامِ كَافَّةً**

لم يطرح الله الشورى دون أن يحدّد قواعدها المنهجية، فبعد أن قضى الله بالحاكمة البشرية (أولي الأمر منكم) وعبر الاختيار الحر، دعا إلى الحكم الشورى، غير أن الحكم الشورى دون ضوابط اجتماعية وسياسية واقتصادية يمكن أن يؤدي إلى هيمنة أولي الأمر (فيينا) عبر السطوة والنفوذ والدعاوى السياسية التي تنتهي بالإنفاسد في الأرض وإهلاك الحرث والنسل:

وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ \* وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ \* وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْيَهُودَ \* وَمِنَ النَّاسِ مَن يُشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعَصَا \* يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَاسَفُوا أَذْهَبُوا فِي السِّلَعِ كَافَّةً وَلَا تَسْمِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ \* فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاء نَفْسُكُم بِالْبَيْتِ فَاذْعَبُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ \* هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلُلٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالتَّلَاجُ وَفُتِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢٠٤-٢١٠﴾

لهذا ركب الله قاعدة الشورى على قاعدة (ادخلوا في السلم كافة) والدخول في السلم ذو دلالات اجتماعية وسياسية واقتصادية كما ذكرنا، وذلك بتجريد المجتمع الشورى المسلم من الطبقية والعبودية التي تستلزم حرية الإنسان وقدراته على التعبير والحركة، ويتمحور هذه القواعد التأسيسية للمجتمع الشورى في سورة النحل:

﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَلَكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ \* وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا ذَوَّالَيْنِ أَحَدُهُمَا آبَاكُمَ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ



يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ \* وَاللَّهُ غِيبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ وَمَا  
أَنْتَ بِالشَّاعِرِ إِلَّا كَلِمَةٍ الْبَصِيرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّكَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ \* وَاللَّهُ  
أَعْلَمُ بِحُكْمِ مَنْ يَطُوبُونَ أَمْهَنِيكُمْ لَا تَقْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ  
تَشْكُرُونَ \* أَلَمْ يَرْوَا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَكِّنُكُمْ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ  
لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿[النحل: ٧٥-٧٩].

تبدأ الآيات بالاستنكار الإلهي للمنطق الذي يماثل بين عبودية البشر لله وعبودية  
البشر للبشر، وأهم ما في هذه الآيات أن الله يرى في عبودية البشر للبشر استلاباً  
للإنسان، فالعبد المملوك (لا يقدر على شيء) أي إنه (مسلوب الإرادة) ثم إنه (أبكم)  
أي مجرد من حق التعبير ومن أدنى درجات الحرية.

ثم يوضح الله طبيعة مالك العبيد فهو يُحكم تملكه للإنسان الآخر، فمن طبعه ألا  
يوجهه ليأتي بخير، فكل الإمبراطوريات التي نشأت على العبودية إنما استخدمتهم  
للتوسع والغزو الهمجى.

فقاعدة السلم كافة والشورى لا تتسقان مع المجتمع العبودي الذي يستلزم  
الإنسان، وكذلك لا تتسقان مع أولي الأمر عليكم وأولي الأمر فيكم، فتأسيس قاعدة  
أولي الأمر منكم دائماً يعتمد على «المجتمع الإنساني الحر اللاتطبقى».

ويوضح الله هذا المعنى أكثر في قضية التراتب الطبقي وكيفية التفاضل في الرزق  
﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِي كُفِّرْتُمْ عَنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ  
فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبُغِيضَ اللَّهُ بِحَدُوثٍ﴾ [النحل: ٧١] ، فمحور الآية ﴿فَمَا الَّذِي كُفِّرْتُمْ عَنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ  
فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ ، فأصل التفاضل انصراف (فائض قيمة  
عمل) العبيد أو أقتان الأرض للطبقات الإقطاعية المالكة، وكذلك انصراف فائض قيمة  
عمل العمال والحرفيين للطبقات الرأسمالية المتحكمة في التمويل والإدارة والإنتاج،



فلو أحسن التوزيع لرد فائض القيمة إلى أصله بالتساوي بين قوة رأس المال وقوة العمل ﴿رَأَى يَرْفَعُهُ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ فتكون (المساواة) بين القوتين، العمل ورأس المال.

وهذه قاعدة مساواة تحرض على الاشتراكية المؤسسة على طبقية مزدوجة، طبقية (الدولة - الحزب) التي تسلب الرأسمالي حقوقه، وتسلب العامل أيضاً حقوقه. فالمساواة الإسلامية تحتفظ للرأسمالي بحقوقه ولكنها ترد للعامل وللфلاح نصيبه.

بذلك ينهار البناء الطبقي الذي يستلَب الإنسان ويختصر الشورى في أولي الأمر (فيكم) و (عليكم) وليس منكم، لأن من يملك هو الذي يحكم، وإذا حكم من يملك تكون الدعاوى السياسية والاستعلاء والإفساد في الأرض وإهلاك الحرث والنسل كما أوردت سورة البقرة :

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ \* وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسَاوِدَ \* وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ إِلْهَادُ زَيْنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ \* يَتَأَيَّمُوا الْأُبْرَاطَ آمَنُوا أَدْخُلُوا فِي الْبَيْتِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ \* فَإِن رَّكَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْمُوا إِنَّ اللَّهَ غَرِيبٌ حَكِيمٌ \* هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾  
[البقرة: ٢٠٤-٢١١] ولا تحقق قاعدة السلم كافة.

ربما يبدو الأمر (مثالياً) وبالقطع فإنه لم يطبق في تاريخ المسلمين، وإن كان الإسلام قد وجه به، ومؤكداً على (الحرية) بعد إدانته للبكمة، ومؤكداً على (الإرادة الإنسانية) من بعد إدانته لمالك العبيد الذي يستلَب قدرة مملوكه.



## خصائص الحاكمية البشرية

فالذين يتحدثون عن الشورى الإسلامية الآن إنما يحصرونها في لاهوت وكهنوت طبقين ولا علاقة لهم بالإسلام إلا لفظاً.

هذا هو الإطار الذي يجب أن نفهم ضمنه الممارسة الرسولية المباركة قولاً وفعلًا، فلا نمضي إلى حدود التطرف والمغالاة بمعزل عن التفكير المنهجي، فبين أيدينا القرآن الذي بين لنا ما كانت عليه مهمة خاتم النبيين، فأنا مع كل قول وفعل صدر عن الرسول، وليس ثمة تعارض بين القرآن وما صدر عن الرسول قولاً وفعلًا، وكيف يكون ثمة تعارض وقد أوتي القرآن نفسه للرسول ومعه «الخلافة الكونية» برُمُتها، وهي أكبر من خلافة الإنسان في الأرض منذ آدم وإلى سليمان وداود.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَتَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧].

وماثل الله عظمة القرآن بعظمة أخلاق الرسول:

﴿وَأِنَّكَ لَعَلَّ خُلُقِي عَظِيمٌ﴾ [القلم: ٤].

عظيم (محمد) يحمل عظيمًا (القرآن) فكيف يتعارضان؟ وكيف ينسخ عظيم عظيمًا؟ إنها آفة الرواة.

إلى أي مدى تكون حرية التصرف للحاكمية البشرية؟

هذا هو التساؤل الخطير! فقد قضى بعض الناس بضوابط معينة لا يتجاوزها التصرف البشري، وانقسم أهل الاجتهاد بينها وفيها، فهناك القياس الذي يبنى على أصل يقاس عليه، وفرع مقيس وحكم وعلة، وهناك الإجماع ما بين الصريح الذي يحظى بقبول الجمع، والسكوتي الذي يسكت الجمع عنه ولا يرفضونه، وهناك الأخذ بالنقل والأخذ بالرأي في كل ذلك.

غير أن ذلك كله إنما يرجع إلى محاولة فهم النص عبر تحديد وسائل الإدراك وضوابطه، وليس هناك ما يمنع ذلك، ولكن الذي يمتنع منطقيًا هو محاولة حصر



ضوابط الإدراك في تلك الحدود، فهناك نوع من الإدراك يتجاوز «ذاتية النص» إلى «ما ورائته»، إلى «الخلفية» التي قررت الحكم وبما هو أعمق من «مقاصد الشريعة».

فحين يُقرُّ الله - مثلاً - تعدد الزوجات بنص ما يرد في سورة النساء:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَتَذَكَّرُونَ ۚ وَالْطَّيِّبُ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَمِينِ فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَتَى وَكُنْتُمْ تَزْنُونَ ۚ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَمْلِكُوا فَوَاحِشَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ

أَذْنَبَ أَلَّا تَعُولُوا ۚ [نساء: ١-٣].

فالآيات هنا تردُّ الكثرة البشرية (رجالاً كثيراً ونساءً) إلى أصل واحد (نفس واحدة) استمدت خلقها من إله واحد «ربكم الذي خلقكم» فتواصل البشرية بالربوبية مع خالقها وتواصل بالرحم في ما بينها. وفي إطار هذه التواصلية تأتي وصية الرب للقسط في اليتامى من «الأرحام». والقسط قيام بواجبات الرحم تجاههم، عناية بهم واثماناً على مالهم فكيف يكون هذا القسط؟ وكيف تكون العناية؟

اليتيم من مات أبوه، لا أمه، ففي حياة الأب لا يوصى آخر على أبنائه. فكيف تكون العناية باليتامى مع وجود أمهم؟

هل نساكنهم بذات الدار أم في دورنا لتتم العناية بهم؟ إذن سنقع في محذور المساكنة وهو أمر كشف الله لنا عن مخاطره:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ وَرَزَوْنَاهُ الْآلِيَّ هُوَ فِي بَيْتِنَا عَنْ نَفْسِهِ. وَعَلَّقَتِ الْأُبُوبُ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ۝ وَلَقَدْ هَمَّتْ يَهُودُ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَمَّا بِرُهْنٍ رَبُّوهُ ۚ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ۝ وَأَسْبَقَنَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَيْصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيْنَا سِيدَهَا لَدَا الْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ قَالَ هِيَ رَزَوْنِي عَنْ



نَحْنُ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُعْرَضُونَ هُنَا وَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ تَكُونُ الْأَنْفُسُ فِي الْعَصَايِ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ يَسُوفاً فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرْوَدُ فَتُنَاجَىٰ عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٥﴾ [يوسف: ٢٢-٣٠].

لم يقل الله - سبحانه - في الآية (٢٣) وراودته امرأة العزيز، وإنما قال: «وراودته التي هو في بيتها»، فالإشارة اتجهت إلى «المساكنة» فردَّ الله الأمر إلى «السبب» أي المساكنة، بينما تحدثت النسوة في المدينة عن «النتيجة» بقولهن: «امرأة العزيز تراود فتأمن عن نفسه» (الآية: ٣٠).

إذن قد أغلق باب مساكنة الأيتام من الرحم بوجود أمهم المحرومة من زوجها المتوفى والتي ترى في عناية الوصي على أبنائها من الأرحام وقيامه بالقسط فيهم ما يُقرب النفوس بعضها إلى بعض.

ويمتنع كذلك الحل الثاني، وهو «تبني» هؤلاء الأيتام، فمهما كان تبني اليتيم فإن مخاطر مساكنته لباقي أفراد العائلة، للإنانث إن كان ذكراً، وللذكور إن كانت أنثى، تظل قائمة، فهو ليس من أصل البنوة. كما أن التبني لا يحول دون النظر إلى محرمات المتبني من زوجة أو ابنة خلافاً لمنطق أصل البنوة، وقد أوضح القرآن لنا ذلك في سورة الأحزاب:

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَنْزَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُونًا ﴿٣٨﴾﴾ [الأحزاب: ٣٧-٣٨].



لهذا منع التَّبَنِّي، وطلب إلى المؤمنين إلحاق المتبني باسم أبيه:

﴿وَمَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفَيْهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ النَّسَى تَطْلِهْرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ كَقَوْلِكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ \* أَدْعُوهُمْ لِأَسْمَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤-٥].

إذن ثمة يتيم لا نستطيع أن نساكنه بوجود أمه (سورة يوسف) ولا نستطيع أن نتبناه (سورة الأحزاب) ويطلب منا القسط فيه والعناية به «سورة النساء»، فكيف يكون الحل؟

﴿وَإِن خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَمِينِ فَأَدْكُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَتْنٍ وَتَلَّتْ وَرَبَّعٌ فَإِن خِفْتُمْ أَلَّا تَمْلُؤُوا فَوَاحِشَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ آدَةُ آلَاءِ تَقُولُوا﴾ [النساء: ٣].

هنا «ف» شرطية واقعة في جواب الشرط، مربوطة ومشدودة إلى علة، هي الخوف من عدم القسط في اليتامى حين نبتعد عن المساكنة فلا تتوفر شروط العناية بهم، وحين يمتنع التَّبَنِّي، فلا يكون من حل سوى الزواج من «أمهم» لتحقيق «المساكنة الشرعية» التي تتوفر معها القِسْطُ في اليتامى. والإشارة إلى «النكاح - الزواج»، هنا ترتبط بالنساء لا بالفتيات الأبكار، أي أم اليتامى من رَحِمِنَا كما قضى مبتدأ سياق الآيات في سورة النساء، أي الاتصال بين الربوبية والرحيم.

ليس جُزْأً أن يكشف الله - سبحانه - عن دواخل نفوس الأنبياء ويظهر أموراً مخبوءة بطبيعتها (وتخفي في نفسك ما الله مُبْدِيهِ) إلا أن يكون في هذا الكشف «حكمة خطيرة» لا بد من جلائها للناس وهي حكمة منع المساكنة والتَّبَنِّي، فإله - سبحانه وتعالى - يأمرنا حتى بالكف عن القول في ما نعلمه من سلوك الناس وانحرافات خشية تعود الناس أقاويل تكرر في وجود الفواحش بينهم فيستسهلون أمرها ويمارسونها:



﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا نَحْسَبُهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَبَرٌ لِّكُلِّ أَمرٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ \* لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَبَرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ \* لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شَهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَذِبُونَ \* وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ \* إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ يَأْفَوِهُرُ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّئًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ \* وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بَهْتَنٌ عَظِيمٌ \* يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ \* وَبَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ \* إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ \* وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ زَوَّافٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ١١-٢٠].

القضية هنا ليست فقط قضية الذين جاؤوا بالإفك، فلكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم، ولكن القضية قضية الذين أفاضوا فيه إذ يفترض في المؤمن أن يكف عن هذا النوع من الأقاويل حفاظاً على سيرة المجتمع المؤمن، الذي يجب ألا تعتاد مجالسه مثل هذه الأقاويل.

مع ذلك كشف الله لنا عن دواخل لا يعلمها غيره في نفوس الأنبياء، وهذا ما يجب أن نتوقف لديه، فالأمر بالغ الخطورة قطعاً، أي منع المساكنة غير الشرعية ومنع التبيي فلا يكون ثمة حلّ للقسط في اليتامى غير الزواج من أمهم.

فالتعدد ضمن هذه القراءة المنهجية محدّد ومقيّد إلى حالات العناية باليتامى من الرحم فهو زواج تغلب عليه الصفة «الاجتماعية» وليس تعدّداً مزاجياً كما يفهمه البعض.

ثم إن الله - سبحانه - وقد أشار علينا بهذا التعدد المقيّد إلى حالات القسط في اليتامى فإنه لم يجعله إلزاماً، إذ قيّده إلى رغبتنا نحن (فانكحوا ما طاب لكم من النساء)،



فلعل البعض ينفر من خصائص امرأة ما، ثم ردنا إلى ضرورة «العدل» بين النساء المتعدّدات (فإن خفتن ألا تعدلوا فواحدة). وأكد الله - سبحانه - مصاعب أن نعدل فعلاً في آية أخرى:

﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٢٩].

وهنا ملاحظة مهمة، إذ يخلط الناس أحياناً بين الزوجة الواحدة المشار إليها في سورة النساء (فإن خفتن ألا تعدلوا فواحدة) والزوجة الأصل، بينما ينطلق الخطاب الإلهي من التعدد الذي يرتبط بحالات الأيتام ولا ينطلق من فِطْرَةِ الزواج نفسها. فالواحدة المشار إليها في حال عدم القدرة على العدل هي الواحدة التي تضاف إلى الزوجة الأصل، أي أمّ اليتامى. لذلك لم يأت الخطاب الإلهي بادناً بالزوجة الأصل فانكحوا ما طاب لكم من النساء «واحدة ومثنى وثلاث والخ»، وإنما بدأ الخطاب «مثنى وثلاث»، وفي هذا توجيه لأداء مهمة اجتماعية - إنسانية. وقد خَفَّفَ الله قيود العدل بقوله: «ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم» فأوجد العذر مسبقاً، ثم وجّه إلى الحد الأدنى لا الأعلى من العدل، «فلا تميلوا كل الميل فتدروها كالمعلقة». هذا مثال على «ما ورائيات» البحث في التشريع حيث ننتهي إلى تقرير أن التعدد مقيد إلى حالة اجتماعية محددة بالقسط في الأيتام من الرحم وفي إطار منع المساكنة والتبني، وأن التفضيل في التعدد يقتصر على واحدة، غير الزوجة الأصل، فلا يكون التعدد بعد مزاجياً وشهوياً.

ثم إن هذا القول لا يمنع من زواج أخرى تضاف إلى الزوجة الأصل وفق شروط الزوجة الشرعية الكاملة متى اقتضت الضرورة ذلك. وهذا النوع من الزواج يختلف عن الزواج المتعدد المنصوص عليه في مقدمة سورة النساء، فذاك زواج تغلب عليه الصفة الاجتماعية - الإنسانية ومقيد إلى حالات الأيتام. أما الزواج الآخر فيتم لإشباع



حاجات لا تكون الزوجة الأصل قادرة عليها. فبعد أن عدّ الله لنا محرّمات الزواج قال:

﴿وَأَجَلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَسْتَعُوا بِأَمْرِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْتَعْتَمِينَ بِمَا اسْتَعْتَمْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَتَأْتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرْضَيْنَهُنَّ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا \* وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنَ الْفَرِيضَةِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَفَحَاتٍ وَلَا مُتَخَذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْتَ بِفَحْشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَلَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ \* يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ الَّذِي فِي قُلُوبِكُمْ وَيُتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: ٢٤-٢٦].

قد حمل بعض الناس هذا النوع من الزواج ما لا ينبغي أن يُحمل عليه تأويلًا لكلمات مثل «استمتعتم» و«أجورهن» و«تراضيتن» فركبوا فهمًا «ذنبًا» لما سمّوه «زواج المتعة» والأمر غير ذلك. فهذا زواج كامل الشروط ولا مجال فيه لتوقيت وأجل (محصنين غير مسافحين)، بل حتى ما ملكته الأيمان يُشترط فيه كامل شروط الزوجية: (محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان).

قد أباح الله هذا النوع من الزواج لحكمة بالغة، فلعلّ ضرورات تفرض على بعض الناس الزواج بأخرى غير زوجته الأصلية الأولى (غير ضرورات الزواج الاجتماعي)، فلو قيد المشرّع الزواج بواحدة لاضطربت أمور بعض الناس فيجدون أنفسهم بين محظورين، أحدهما مكروه وهو طلاق الأولى ليتمكن زواج أخرى، وثانيهما محرّم وهو الزنى. ونعلم أن حكم هذه الضرورات التي فرضت نفسها على البعض في مجتمعات لا تقرّ هذا النوع من الزواج إلا بطلاق الأولى قد أدّى إما إلى شيوع الطلاق وإما إلى شيوع الزنى.



هذا نموذج لكيفية البحث المنهجي في «ما وراثيات» التشريع، وفي التعامل مع النصوص القرآنية في وحدتها الكتابية. ويمكن أن تكون هناك من الآيات المتعلقة بهذا التشريع ما قصرنا عن الوصول إليها، سواء في ما أنزل مدنياً أو مكياً، فنحن لا نفرق بين المكي والمدني بوصف المكّي - كما يعتقد البعض - يتجه إلى العقيدة، والمدني يتجه إلى التشريع، فالكتاب وحدة عضوية واحدة من بعد إعادة الترتيب الوقفي، وما في سورة يوسف المكّي التنزيل هو مقدمة تشريعية لما في سورتي النساء والأحزاب المدنيتين.

كذلك حين درسنا الفرق بين الحاكمية الإلهية وحاكمية الاستخلاف، فقد أخذنا خصائص الحاكميتين والتشريعات المتعلقة بهما وتكييف نمط العلاقة الإلهية بالحاكمتين من المكّي والمدني على السواء.

فالمنهجية القرآنية تكشف ضمن كَلِيّة القرآن ووحدته العضوية عن «ما وراثية» الأحكام الإلهية واتجاهات التشريع بحيث يصبح الإنسان قادراً على ممارسة أقصى حالات القدرة على التصرف، فلا تتناول القرآن كمجرد نصوص وأحكام ولكن نتناوله كمنهج محيط بهذه الأحكام ودالٌّ على خلفيتها وضابطٍ لمفهوميتها. فينفذ إلى «ما وراثيات» النص عوضاً عن محاولات التأويل الذاتي لبعض النصوص لكي تتلاءم قسراً مع مُحَدَّثات الأمور وبدّعها. فالقدرة البشرية على الإبداع الملتزم كامنة في منهجية القرآن.

إن الهدف الأساسي للدين هو أن يرتقي الإنسان من الحالة الطبيعية المادية الغريزية ﴿أَتَجْمَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ إلى حالة يتطهر فيها - نفساً وحساً - من المتعلقات الدونية. هذه هي الغاية المستهدفة بحيث يتكافأ الخلق مع الحق: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْبِكُمْ \* مَا خَلَقْنَاهُمْ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التحان: ٣٨-٣٩].



من أجل هذا الترقّي كان الدين، وكانت الشرائع، فلا زنى بهيمياً يمارسه ذكر مع أنثى، ولكنّ المعاشرة بين زوج وزوجة، وتعلّق بحرمة الأسماء العائلية، ولا قتل للنفس التي حرّم الله، ولا سرقة، ولا كذب.

ولا يكون كل ذلك ممكناً إلا إذا ارتبط الإنسان بوجود خالق منزّه ومقدّس، فدون الوعي بوجود الخالق المنزّه والمقدّس تنتفي «الغاية» من الوجود، ويرتدّ الإنسان إلى طبيعته البهيمية الغريزية:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

هذا الترقّي إلى درجة «المثالية الإنسانية» هو المطلوب دينياً ليكون الإنسان «بحاكمية البشرية» متكافئاً مع الكون. وليست الشرائع سوى حدود تمنع الانهيار نحو الدونية وتدفع باتجاه الترقّي. فالأصل في وضعها الإلهي ليس «نزعة عقابية» بل «حماية الترقّي الإنساني»، والقرآن كلّ منهج كلّ لهذا الترقّي. وقولنا هذا يتناقض مع مسلكية الذين تحوّلوا بالدين وشرائعه إلى نزعة عقابية تُمارَس بسادية لا حدود لها، فشوّها معنى العلاقة بالله وفسّروا النصوص خارج منهجية القرآن الشاملة.

إن الركون إلى ضوابط التشريع الحسّي قد كان ضرورة في فترة من فترات تطوّر التشريع الديني، وبالذات في إطار الحاكمية الإلهية لبني إسرائيل. أما وقد جاء الإسلام فقد تكرّس الاتجاه نحو معالجة «النفس» لا «الحواس» وحدها، فطرّحت شرعة التخفيف «ذلك تخفيف من ربكم ورحمة». وإلى هذه «النفس» تتجه كلية القرآن، وعليّنا من أجل هذه «النفس» لا من أجل الحواسّ وحدها التعامل مع كلية القرآن. فترقية «النفس» هي الأصل في حاكمية الإنسان. وتلك غاية الوجود. فكيف لهذا الإنسان أن يستلهم «منهجية القرآن» في ممارسة «حاكمية البشر»، لتبدع البناء الحضاري البديل لا على مستوى المنطقة العربية فقط ولكن على مستوى العالم أجمع.







## الفصل الخامس

### الحاكمية البشرية ومقدمات الحضارة البديلة







بالمناهجية القرآنية كوعي يعادل موضوعيًا الوجود الكونيّ وحركته، وعبر الجمع بين القراءتين حيث يتحقق الوعي الإنساني بالوحدة الجدلية الرابطة بين الغيب والإنسان والطبيعة، يطرق الإنسان أبواب عالميّة الإسلاميّة الشاملة. وكذلك يطرق أبواب وجوديته الكونية.

نحن في عالم تتدامج أجزاءه الجغرافية والبشرية، عالم يحقق عالميّة، وقد كنا أول من أسس لهذه العالمية انطلاقاً من الإطار العربي الذي اتسع لجميع الأمّيين من المحيط الأطلسي غرباً إلى المحيط الهادئ شرقاً، انطلاقاً من موقع الوسط من العالم حيث تدامجت الأعراق والحضارات التاريخية. وقتها نسخنا ثنائية الشرق والغرب. فليس ثمة عصبية حضارية فنحن من كل الحضارات، وليس ثمة عصبية عرقية فنحن من كل الأعراق، وليس ثمة عصبية دينية فكتابتنا خاتم الكتب المسترجع نقدياً لكل موروث البشرية الروحي والمُهمّين عليها، ونبينا خاتم أنبياء البشرية والمُهمّين عليهم.

ونحن في عالم تعدد فيه المناهج المعرفية والحقول الثقافية، وكتابتنا هو المهمّين بمنهجته على كل هذه المعارف والثقافات، لا يلغيها ولا ينفيها، ولكنه يستوعبها ويستعيدّها إلى منظورها الكوني، وهو يجرّد الوجودية من عبثيتها، ويجرّد فلسفات العلوم الطبيعية من مادّيتها، ويجرّد الغيبات من لاهوتيتها، وهو يقود القراءة الثانية «بالقلم» إلى القراءة الأولى «بالله خالقاً»، فلا تبطل قواعد المعرفة ولا دالاتها ولا مناهجها، ولكن تبطل فقط نهاياتها حين يستجمعها المنظور الكوني.

ونحن في عالم - مع عالميته ومع تعدّد مناهجه المعرفية وحقوله الثقافية - تعصره أزمة فكرية وحضارية خانقة، لا ندعي أن خلاصنا يتمّ بمعزل عنه وليس له أن يدعي - إذا أدرك - أن خلاصه يتمّ بمعزل عنا. مثل هذا العالم هو هدفنا ونحن هدفه.



قد حقق هذا العالم، في الأجزاء المتقدمة منه بالذات، قطيعةً معرفية مع اللاهوت، وأعاد نقد عصر الأيديولوجيا، ويطرح انتقاداته للبوتقة التكنولوجية. قد تقدم خطوات كثيرة، والمتغيرات أكثر مما يُستشهد بها شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً. بينما بقيت حركات «الصحوحة الدينية» لدينا قيد العصبية الذاتية، والابتعاث الماضي لمنظورات الذهن البشري، تردّد أقوالاً مغلوطة عن الحاكمية الإلهية والاستخلاف، والتكفير والجاهلية، وتحسّس العلاقة مع الآخرين بمنطق التغيرات الحضاري السطحي غير مستدرّكة أن من معالم ختم النبوة وَضَعَ حَدَّ فاصل بين مرحلتين في تطور الفكر الإنساني، مرحلة التعامل مع الغيبيات بإسقاطات تجسّدية أو حلولية، ومرحلة اتجاء الإنسان نحو الفكر الوضعي دون البحث عن «مشروعية غيبية»، وذلك ليس من منطلق «الكفر» بالضرورة، ولكن من منطلق «تحييد النصّ الديني»، الذي استلبته حالات ذهنية تاريخية أيديولوجية مناقضة للعقل والمعرفة. وقد كان هذا «التحييد الديني» مقدّمة لأن تلتهم المنظورات العلمية المادية للوجود عقول كثيرين في ما بعد.

نمر الآن في مطلع القرن الخامس عشر الهجري بارتجاج فكري وحاضري شديد على مستوى العالم كله، لا على مستوى منطقتنا فقط. وقد سقط التأويل الفلسفي للحقائق العلمية كمنهاج في قيادة حياة البشرية، لكنه لم يسقط كتأويل فهو باعتماده على الحقائق العلمية ضمن اللاهوت الأرضي قدّم نجاحاً فلسفياً كصياغة للتطور الفكري للحضارة الأوروبية، وفي علاقتها بالحقائق العلمية. لقد سقط التأويل الفلسفي كمنهاج، ولذلك فإن محاولة بناء أي بديل حضاري يستند إلى الفصل بين الجدلية المادّية والحقائق العلمية هي محاولة غير أمينة مع نفسها، فالحقائق العلمية - على نسبتها التاريخية - لا تعطي في حال تماسكها وتكاملها - أي في حال وحدتها - إلا المنهج الجدلي المادي كما صاغته الماركسية. إذن نستطيع القول إن الماركسية هي الوجه العلمي المادي في «الفلسفة» للمقابل العلمي المادي في «الواقع». وكل محاولة



## الحاكمية البشرية ومقدمات الحضارة البدلية

أخرى تنطلق من تحليل المعلومة العلمية في واقعها المادي، ولا تنتهي إلى الماركسية كاسلوب في التحليل الفلسفي، لا تملك إلا أن تكون متناقضة مع مقوماتها. وبمعنى أوضح، إن التأويل الفلسفي للعلم ينتهي بالضرورة إلى لاهوت الأرض في شكله التحليلي الماركسي.

في المقابل نرى بوضوح، من خلال الوقائع اليومية في كل مجالات الحياة، أن المنهاج العلمي لحياة البشر أو الذي كرسّت الحضارة الأوروبية تطبيقه حياتياً، قد أدى ويؤدي وسيؤدي إلى نتائج وخيمة أقلّها انسحاق الإنسان في عالم الأشياء وارتباطه بالجبرية المادية، وتحوله إلى كائن بلا تاريخ وبلا حاضر وبلا مستقبل، فيغدو كائناً مستلباً ومنفعلاً. ولا يبقى أمامه سوى الوعد بجنة الأرض التي يعبر إليها - في أحسن الأحوال - عبر بوابات الجحيم. فلا يبقى منه ما يلج به الجنة، ويبقى الوعد المنشود كالجزرة أمام الحصان، ويسقط الحصان دون أن يبلغ الجزرة.

إن أي محاولة جذرية لإيجاد بديل حضاري فلسفي لمنهاج الحياة البشرية تتطلب خروجاً واضحاً على لاهوت الأرض، أي على تجاوز الإحالة الفلسفية للحقائق العلمية في وحدتها. ويستحيل هذا الأمر ما دام الإنسان كائناً ينبثق في تركيبه من الوجود الطبيعي، ويمتد بتركيبه فيه، كما يستحيل ما دام الوجود كواقع يتعكس مباشرة عبر العمليات الجدلية على فكر الإنسان. إنه قدر صعب لا يمكن تجاوزه ضمن اتجاهات اللاهوت الأرضي، وضمن الاعتماد على تأويل الحقائق العلمية كمصفاة لعقل الإنسان في بناء تصوّره الكوني وعلاقاته بالوجود.

## ما هو البديل؟

البديل الفلسفي الوحيد هو أن يقفز الإنسان فوق لاهوت الأرض، أي أن يرفض لوسيط المادي بينه وبين الكونية على مستوى «التصوّر». غير أن القفزة هنا لا يمكن



أن تأتي كقفزة ذاتية اختيارية من فراغ وفي فراغ. فحتى مثل هذا «النزوع الكوني» للإنسان في تمرده على لاهوت الطبيعة يكتشف نفسه - بعد قليل - مقيداً إلى القناة العلمية كمصفاة للحقائق الكونية... مصفاة لم تعد تنفذ ضمنها أو تعبر من خلالها مقولات العقل الإيحائي أو العقل الطبيعي. إن مراقبة شديدة يجريها المنهج العلمي بحق العقل الإنساني تحرّم عليه مجرد التعامل مع إمكانية هذا التصرف الكوني البديل، بمعنى آخر، أصبح الإنسان مقيداً إلى حدود كبيرة بضوابط المنهجية العلمية حتى في البحث عن بدائل لها... إنها أوديسا القرن العشرين حيث يصنع الإنسان سيد مصيره ثم يستبعده ويختصره في الورشة الكونية كمجرد ثُرسٍ صغير.

صحيح أن هذه المصفاة العلمية قد نقلت الإنسان من طور الانفعال السلبي إلى الفعل الإيجابي (النزعة العملية العلمية المتجددة). ولكنها اختصرته «وجودياً» تحت المراقبة الدائمة للعقل العلمي، في حدود تجعل علاقته بالكونية - خارج مواصفات العلم - ضرباً من أوهام العقل الأحيائي أو العقل الطبيعي اللذين تم القضاء على مقولاتهما تقريباً. ثم اختصر الإنسان في حدود التصور العلمي للكون. فالمنهجية العلمية المادية لا تكتفي بالتدمير فقط، ولكنها تحول أيضاً دون البديل. (أوغست كونت).

لم يلاحظ «المجدّدون» أو «المصلحون» هذه العلامة الفارقة حين باشروا محاولاتهم لاستيعاب العلم ضمن الدين كبديل آخر مطروح أمام الإنسان. أرادوا الانطلاق نحو الدين من خلال الحقائق العلمية لإثبات عدم تعارض المقولة الدينية مع الاكتشافات العلمية، وذلك تمهيداً لإمسك العصر بالقرآن. غير أن المشكلة لا تزال باقية، برغم «التأويل العصري»، فالمعلومة العلمية تشكل في المعلومة الدينية، وباعتبار أن المعلومة العلمية قابلة للتحقيق نتيجة البحث والتحليل فإنها المهيمنة الآن، وذات الكلمة الأكثر تأثيراً في عصرنا. وحين يحدث التعارض بينها وبين النص الديني فإنها



تؤدي ولا شك إلى انفصام في الشخصية الإنسانية المتدبنة. ويجب أن نلاحظ أيضاً أن محاولات التأويل العصري تواجه تطويقاً علمياً واسعاً.

فإذا تجاوزنا هذه «العقدة» العلمية في مواجهة العصرية والتأويل، وباشرنا في مخاطبة القلب والوجدان صعوداً إلى اليقين الديني بمسلماته، تعود المنعكسات الأخلاقية للمنهجية العلمية لمحاصرة يقين القلب والوجدان.. إن من خصائص الحضارة العلمية العالمية الراهنة أنها قد ولدت إنساناً تقوم ملكاته الأخلاقية والعقلية على النقد والتحليل والبحث والارتباط بما يمكن التحقق منه... إنها أيديولوجيا العصر بكامل اتساعها النفسي وجذورها العقلية والأخلاقية. صحيح أن الإنسان يشعر بالحاجة إلى القلب والإيمان، ومن شروط الإيمان القلبي أن يتفجر عن ينبوع يقيني. غير أن خلفية الحضارة العلمية تنشر ضباباً كثيفاً بين القلب وموضوعات الشهود الديني. فالاستغاثة بالقلب ورؤية الوجدان في مقابل الهجمة العلمية وتأويلاتها الفلسفية يمكن أن تعطي نفساً دينياً طيباً في البداية، ولكنها لا تلبث أن تهزم أمام ضراوة العصر الذي يطلب اليقين في العقل، وليس من خلال العقل فقط، ولكن عبر مصفاة علمية.

التجديد إذن - في إطار العصر - ليس قضية تأويلية فقط وإنما يمضي ليخترق كل أبعاد التكوين الأيديولوجي المعاصر. ويمكن أن نزيد الأمر وضوحاً ونقول: إن مجمل التكوين الحضاري العالمي لعصرنا قد ولد إنساناً هو غير إنسان العصور الدينية في تكوينه الذاتي وتصوره الكوني وأبعاده الاجتماعية والأخلاقية.

فمدعي النبوة اليوم لا يمكن أن يجد من يصغي إليه، في وقت ظهر فيه الأنبياء في إطار مراحل تاريخية ذات تركيب أيديولوجي مختلف تضمن مفهوم النبوة والوحي، أما معارضات أولئك الأقوام فقد سبقت ضد النبي نفسه لا ضد مفهوم النبوة. أما الآن فالواضح يبدو مختلفاً تماماً على مستوى التركيب العقلي والأخلاقي للإنسان في عصرنا، فلحكمة هي من صميم خصائص تركيب عصرنا المنفتح على العالمية



الأوروبية قطع الله النبوة منذ أربعة عشر قرناً. ولحكمة يعلمها الله في تطورات الإنسان ضمن منهج أكثر علمية قال في سورة النمل:

﴿وَلَا يَأْتِيَنَّكَ مِنَ الْآيَاتِ تَلَافُتٌ مِّمَّنْ خَلَقْنَا أَجْزَارًا مِّمَّا يَفْقَهُتُمْ أَنْ الْإِنْسَانَ كَانُوا بَيِّنَاتًا لَا يُؤْمِنُونَ﴾

[النمل: ٨٢].

ولكن ما بين انقطاع النبوة وإخراج الدابة، عصور يظل الصراع قائماً فيها بين الإنسان ومصيره وواقعه، باحثاً عن بديل يخرج به من المأزق الذي وقع فيه بتبنيه للاهوت الأرض. ويصعب أن يأتي البديل بالتوفيق القسري ما بين منهجية العلم ومنهجية الدين.

يضاف إلى ذلك أن انقطاع الوحي منذ أربعة عشر قرناً (وهي التي شهدت التناوب التاريخي بين الحضارتين الإسلامية والأوروبية) يجعل التعامل مع الدين في مجمله تعاملًا مع ظرف أيديولوجي تاريخي خاص تم في إطار التنزيل. فنحن نسعى إلى فهم المقولات الدينية عبر تواصلنا التاريخي الخاص كحضارة إسلامية، ولكن أيضاً عبر العالمية الأوروبية التي تستوعب معالم تطورها الحديث. من هنا يقتضي الأمر فهم القرآن بمنهجية معاصرة لا بافتعال العصرية. (أركون والجمع بين الثلاثية، الفكر الإسلامي - قراءة علمية، ص ٩، ١٠).

كل ما سقناه حتى الآن لا يخرج عن التأكيد على طبيعة لاهوت الأرض وخصائصه الفلسفية والأخلاقية. وقد حاولنا إبرازه كروحية للتطور الأوروبي حيث انتهى ضمن الصياغة المادية الجدلية. وقد أوضحنا أن إنسان اليوم - العصر - قد تكيف عقلياً وسلوكياً على نحو جديد يحمل سمات التحرر من علاقات الماضي التقليدية بأشكالها الاجتماعية والفكرية. وأصبحت العلاقة بين الإنسان والكون علاقة مباشرة نقدية وتحليلية تتباعد - بحكم التطور وانقلابية العصر - عن تأثير الوسطاء والأطر الكابحة. إن الحرية الإنسانية تبلغ ذروتها في إطار القدرة الملازمة على ممارسة النقد والتحليل،



## الحاكمية البشرية ومقدمات الحضارة البديلة

وفي إطار الحيوية الفكرية الملازمة للوعي المفهومي التاريخي الجديد. صحيح أن مجتمعاتنا لم تحمل هذه السمات بعد، ولكنها متفاعلة بها على الأقل على مستوى القوى الاجتماعية الحديثة التي تقود فعاليات الحياة، وتحدد مسار التجربة الوجودية، وتكيف آفاق المستقبل. وقد أوضحنا حالة الانقسام التي تعيشها هذه القوى بين رياح التغيير العالمي والأطر التقليدية لثقافتها وموروثها الديني، ثم أوضحنا مصاعب الاختيار ومشكلات الجدل في سبيل التوفيق أو الاختيار.

إن الخلاصة المهمة لمجمل ما طرح من مناقشات هي أن الفكرة - أي فكرة - اليوم لا قيمة لها، ما لم تحقق عالميتها ما دمنا جزءاً من عالمية شاملة بدأنا بها نحن منذ الأُميين ثم فرضها التطور الأوروبي منذ قرن ونصف القرن تقريباً. وبالتالي فإن هذه العالمية قد قضت نهائياً على «خصوصية» الفكر ضمن مبادئ أشنغلر القديمة في «روح الحضارات». لقد بدأ الاتجاه قوياً نحو إنسان العالمية الذي لا يتجزأ، وهذه العالمية تمضي إلى كل التفاصيل.

إذن ليست أزمة البديل الحضاري أزمة أوروبية أو عربية بقدر ما هي أزمة عالمية، في حدود التحول الجاري باتجاه هذه العالمية. ونحن نحاول إيجاد الحلول فإن المسألة لا تتعلق بنا بمقدار ما تتعلق بالوضعية العالمية ككل. لقد أصبحت الأرضية الفكرية مشتركة، والتفاعل عضوي موحداً، وهكذا يصبح البديل لأزمة اللاهوت الأرضي بديلاً عالمياً لا محلياً. حتى المفهوم الكلاسيكي للشرق والغرب لم يعد له من وجود الآن إلا في بعض المباحث التاريخية والأنثروبولوجية المقارنة. قد أسقطت التجربة العالمية نفسها علينا، واندمجنا بها عبر قوانا الاجتماعية الحديثة على الأقل، وبالتالي فإن الاختيار لا بد أن يأتي عالمياً وإلا اندثر مع الخصوصية المندثرة. إن هذا القول لا ينفي في حال من الأحوال الجدلية الخاصة لتطورنا التاريخي،



بشكل مفارق لجدلية التطور التاريخي الأوروبي. فقد أذى الإسلام بأحكامه وتشريعاته دوراً خاصاً في تكيف نموّ قوانا الاقتصادية والاجتماعية، كما حدد أطر اختياراتنا الفلسفية. كذلك أدى الفتح الانتشاري الذي شمل عدة شعوب - من هضاب آسيا الوسطى إلى شمال أفريقيا عبر احتواء الحضارات المتوسطة - دوراً كبيراً في تحديد تركيبها الداخلي، كما أدت منعكسات الثقافة المحيطة بنا دوراً في تحديد ملامحنا الفكرية. كل ذلك ينضوي في إطار الجدلية التاريخية المفارقة.

إذن إن اكتشاف البديل يتخذ منذ البدء قيمة عالمية، إذ لا يكفي أن يأتي هذا البديل في إطار الصراع القائم بين مفهومي الأصالة والتغريب في واقعنا، وإلا كان بديلاً غير قابل لتجاوز هذه المرحلة الخصوصية بالذات حين تتطور المرحلة نفسها - بقوة الدفع المتسارع - إلى العالمية الشاملة.

حين يأتي البحث عن البديل للاهوت الأرض، منساقاً بهذه العالمية ومقيّداً بها، فإن هموم الإنسان المعاصر وتركيبته هي التي يجب أن نوليها اهتمامنا الأساسي. إن هذا الأسلوب يخالف حتماً التوجّه إلى المسلمين فقط، في إطار الانتماء الديني المسبق، بل المطلوب هو التوجّه نحو العالمية نفسها، حيث الاختبار الحقيقي على مِحْكَة التجربة البشرية الواسعة لما ندعو إليه في إطار تصوّر كوني جديد.

لعلّي أزيد الأمر تعقيداً بالنسبة إلى المصلحين والمجدّدين. ولكنني في الحقيقة لا أضع الأمر إلا ضمن صوابيته وحقيقته. إن التعامل اليوم هو مع لاهوت الأرض المفترس ضمن شمولية العالمية. وكل تجديد يعتمد على خصوصية الوعي المحلي ليس سوى تجديد أعرج وقصير النفس في عمر الزمان، بقدر محدودية المكان الذي ينتمي إليه. هكذا يجب أن يأتي البديل «عالميّ الإطار والمحتوى»، مستوعباً بالوعي لمقومات العالمية المعاصرة وقادراً على النفاذ فيها والتعامل معها.

يقول الله - سبحانه:



﴿قُلْ بِتَأْيِيدِهَا أُنَاشِرُ لِفِ رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيُّ الَّذِي أَلْزَمَ الَّذِينَ يَزُورُونَ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ وَأَتِيعُوهُ تَمَعًا تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

العالمية مقررة منذ البدء، ومهمة الإسلام شاملة للعالم كله «إليكم جميعاً». وقد شمل الإسلام في القرون الأولى من الدعوة معظم شعوب النصف الجنوبي من العالم - المعروف وقتها - أي من جنوب الصين إلى جنوب أوروبا. وقد كان من نتيجة ذلك الانتشار «شبه العالمي» أن تفاعل القرآن مع ثقافات تلك الشعوب وأوضاعها المختلفة، والتراث الإسلامي نفسه هو أوسع تعبير عن ذلك التفاعل ومنعكساته. غير أن هناك فارقاً جوهرياً بين عالمية الأمس وعالمية اليوم. عالمية الأمس صنعها الفتح الإسلامي نفسه وقد استوعبت حضارات كانت في نزاعها الأخير، وبذلك هيمنت العالمية الإسلامية الأولى على مجريات التطور وتحكمت في تفاعلاته. أما عالمية اليوم فهي عالمية غير إسلامية، وتحتوي الشعوب الإسلامية وتتحكم في مجريات تطورها وفي الصياغة العامة لاختياراتها. ويكفي أن نذكر أن عدة شركات تمول العالم كله بشفرات الحلاقة، وأنه ما من بلد يخلو من وجود حزب يماثل في شعاراته أحزاب العالم الأخرى التي يتخذ منها نموذجاً. لقد اتجه العالم إلى وحدة عضوية كاملة، وكل عمل خارج هذه الوحدة العضوية هو هروب يائس إلى محلية ضيقة، وانغلاق عن فهم التحول، ومعارضة لرسالة القرآن العالمية في الوقت نفسه.

قد أوضحنا في الصفحات السابقة الخصائص الفكرية للعالمية الراهنة، وميزانها بالمنهجية العلمية، وقدرات الإنسان النقدية والتحليلية وميله نحو تأكيد حرية الاختيار ضمن علاقات جديدة بالمجتمع وفي إطار تصوّر كوني جديد. إن خبرات العالم الفلسفية وثقافته وأديانه تطرح نفسها في أحشاء هذه العالمية وتندمج في وحدتها العضوية. وبالتالي ليس ثمة بديل خارجها، فالبدائل المحلية تنزوي بانزواء المحلية



نفسها في العالمية ضمن مرحلة التحول التاريخي التي بدأت منذ قرن ونصف القرن. حين يُعتمد إلى طرح القرآن بديلاً حضارياً على مستوى العالم لا بد من أن تتور مشكلات فكرية في غاية التعقيد، مثال على ذلك: أن محاولات التجديد اليوم تواجه مشكلات الفرز المزدوج لعلاقة القرآن ببيئة التنزيل من ناحية، ولعلاقته بالتاريخ الخاص للشعوب الإسلامية من ناحية أخرى. وبمعنى أوضح نقول:

إن هناك «وعياً مفهوماً تاريخياً خاصاً» قد أسقط نفسه على نصوص الكتاب، واستلبها لظرفه الخاص، وقيدَها به. فإذا كنا نعاني مشكلة الفصل بين فهمين تاريخيين خاصين بالقرآن ضمن سياق تاريخي واحد، ما بين القرن السابع والقرن العشرين، فكيف يكون الأمر حين يُطرح القرآن بديلاً على المستوى العالمي؟ فما هو المطلق وما هو النسبي في القرآن؟ أم أن القرآن نفسه يعطي معنى آخر للاستمرارية خارج دائرة المطلق والنسبي؟ وبمعنى آخر أيضاً ما هي نظرة القرآن وكيفية تعامله مع المتغيرات الجذرية في عالم الفكر والحياة؟ وإلى أي الحدود يمكن أن يمضي التجديد في طرح القرآن طرحاً جديداً كبديل حضاري أمام البشرية كلها؟ هل تُستخلص «فلسفياً» مفاهيمه الأساسية، لتأخذ في ما بعد أشكالاً تطبيقية مختلفة على حسب المتغيرات؟ أم يسحب معه خصوصية المجتمع العربي والمجتمعات الإسلامية الأخرى لتطبيقها تطبيقاً حرفياً على البشرية جمعاء؟

هذه التساؤلات لا يمكن الإجابة عنها بمحض اجتهاد خاص، إلا أن يجد المجتهد في القرآن ما يوضح الإجابة، وي طرح الحلول. فالقول بالبديل القرآني قائم في الأساس عن شمولية الكتاب لكل شيء، فأقلها أن تحتوي هذه الشمولية على عناصر الإجابة عن هذه التساؤلات الصعبة، وقد أوضحنا جانباً من ذلك. كيف يمكن إذن طرح القرآن على مستوى الحضارة العالمية الراهنة، وضمن أفقها، ليستطيع أن يقود المسلم أولاً إلى خارج التخلف ثم يقود معه العالم إلى حيث البديل؟



حين نضع الإطار العام لحركة البديل، ونطرح هذه التساؤلات فإننا نتوجه إلى القرآن مباشرة، وبنفس الروح التي انفتحنا بها على عصر العلم والعالمية، وغصنا في أشكاله وإشكالياته. فكيف يتحدث «الغيب» عن نفسه؟ - رفضناه أو قبلنا به - وكيف يجري منطق؟ وكما أنني لم أقصد في الصفحات السابقة دعوة المؤمن إلى لاهوت الطبيعة تجاوزاً للإيمان السلفي، فإنني لا أقصد هنا دعوة الملحد إلى لاهوت الغيب تجاوزاً للمنهجية العلمية. وإنما أتوجه إلى الاثنين معاً، المؤمن والملحد، لإعطاء التفاعل كلِّ مقوماته وإمكانياته كجدل متجدد ودائم بين لاهوت الغيب ولاهوت الطبيعة. ولا أدعي في النهاية أنني قد أحطت علماً ووعياً بكل جوانب الموضوع، ولكنني أسعى للإسهام في حسم معركة هي من أخطر معارك وجودنا وقضاياه، متوجّهاً إلى الإنسان العالم ومنطلقاً من خصائص وجودي كعربي مسلم.

هل يجب عليّ هنا أن أعالج قضية «وجود الله» كلازمة منطقية تتقدم البحث في لاهوت الغيب؟ إنني أسوق هذه المسألة عبر جدلية الغيب مع الطبيعة، فهنا بالذات المبحك «العلمي» للوجود الإلهي في التجربة. وهذا هو الأسلوب المرجع للخروج من إشكاليات المنطق التقليدي.

فالوجود الإلهي قائم ما قامت العلاقة بين الغيب والطبيعة، فإن انتفت العلاقة انتفى الوجود. وهذا ما حاولت المدارس العلمية المادية تأكيده من زاوية «النفي» ليعود الغيب ويؤكد من زاوية «الإيجاب» في حركة الواقع العملي. فكيف يُقدّم لنا القرآن هذه التجربة؟

إن دراسة عدد من القضايا القرآنية حول هذه الموضوعات يمكن أن توضح لنا ملامح الإجابات المطلوبة حين نطرح القرآن بديلاً حضارياً. ولا أخفي أنني في سبيل إعطاء تصوّر قرآني حول هذه الموضوعات لا يسعني إلا الاعتماد على أسلوب تقديم «النماذج»، لا التحليل المتكامل بالكيفية التي قدّمنا بها المسألة الآدمية، وإشكالية



الروح والأسماء ومفهوم الحاكمية الإلهية وحاكمية الاستخلاف وعرضنا بها لمسألة شروط تعدّد الزوجات، وذلك أملاً في أن تؤدي هذه «النماذج» في مجموعها إلى فهم متكامل يساعد القارئ نفسه في استيفاء معالمة.

إن الحاكمية البشرية بالمواصفات التي ذكرناها في مطلع هذا الفصل والتي تعود بحذرنا التأسيسي إلى عالمية الأميين هي المدخل للعالمية الشاملة التي تحتوي مناهج المعرفة البشرية المتنوعة وحقول الثقافات المتعددة، وضمن أقصى متاحات التصرف العقلي المنهجي الإنساني المستنبط لمنهجية الكتاب والمستدرك لما «ورائيات» كل حُكم فيه. فإذا أبطل الإنسان هذا المنهج أبطل حاكميته في الوقت ذاته.







## الفصل السادس

**الحاكمية البشرية والخطاب الثلاثي  
«الناس - المؤمنون - المسلمون»**



حاولنا في ما سبق من صفحات تحديد الدلالات المفهومية لمعاني (الحاكمية الإلهية) و(حاكمية الاستخلاف) و(الحاكمية البشرية) بالصفة «المصطلحية» لهذه الكلمات وبمعزل عن الاستخدام اللفظي «العام» الذي أربك الذهنية الإسلامية وأدى إلى انحرافات عقلية ومسلكية حين ظن البعض من الناس أنهم يجسّدون «حكم الله» أو أنهم «خلفاء» عن الله في الأرض، فاستباحوا حق كل من يليهم، تكفيراً وتجهيلاً. وفهموا الإسلام بعقلية النصوص التشريعية دون استيعاب لمنهجية القرآن و«ما وراءية» هذه النصوص.

بل لم يميّزوا في فهم هذه النصوص بين ما يرجع منها إلى حِقبة الحاكمية الإلهية على قبائل بني إسرائيل، وهي شِرْعَة «إِصْرُ وَأَغْلَالُ»، وبين ما وجّهه الله إلى المجتمع المسلم القائم على شِرْعَة «الرحمة والتخفيف».

إن الحاكمية البشرية تتضمن - بحكم بشريّتها - التفاعل الإنساني مع المجموع البشري دون ادّعاءات التفضيل والوصايا على الآخرين، فمن طبيعتها - أي الحاكمية البشرية - أن تلجأ إلى أنواع متعددة من الحوارات مع المجموع الإنساني على ضوء منهجية القرآن الكلية ودون أن تطبّق على هذا المجموع الإنساني «نموذج دولة» لم يؤسسه خاتم النبيّين أصلاً، ودون أن تدّعي تمثّلها ورجوعها إلى فهم قرآني تأسيسيّ معيّن، فخاتم النبيّين لم يورثنا تفسيراً للكتاب. إنها حاكمية بشرية ليس من طبيعتها أن تستمد سلطانها إلا من البشر أنفسهم لا من «فئة» تختار نفسها باسم الله - سبحانه - أو باسم حاكميته، أو استخلافيته، سواء كانت هذه الفئة حاكمة أو معارضة.



## التساؤل الخطير

هنا نتوقف لدى تساؤل خطير، فإذا كانت الحاكمية البشرية تستلزم التفاعل الإنساني مع الكل الاجتماعي بوصفها حاكمية غير إلهية وغير استخلافية، فكيف يتحقق للمسلم بناء كيانه الاجتماعي ومنهجية حياته طبقاً للمنهجية القرآنية نفسها؟ هل نستعيد بذلك قيام «دولة إسلامية» لمجرد أن خاتم النبيين لم يؤسس دولة، ولم يكن رأساً لدولة؟ وكيف لنا أن نفهم قيام الرسول بالجهاد وتطويع الجزيرة العربية لدين الإسلام؟

تساؤلات مهمة للغاية ويستلزم الأمر التوضيح الصريح. فخاتم النبيين وإن لم يؤسس دولة ويحدد شكلها الدستوري فإنه أسس «قاعدة مجتمع الدعوة» الذي استصفاه - عبر الدعوة والجهاد - من قوى الشرّك واليهودية والنصرانية. وقد كان مبتدأ تأسيس عالمية الإسلام في مرحلة الأميين «غير الكتابيين» حاملاً للمواجهة «الحاسمة» مع هذه القوى في إطار الجزيرة العربية «المجتمع - القاعدة»، فهناك «لا تساهل»، ولكن من بعد إتاحة كل الفرص للحوار والتراضي في إطار من «التعايش المشترك». وقد عمد الرسول إلى تقنين هذا التعايش، ومع اليهود بالذات، عبر ما كتب في «صحيفة» المدينة وإلى أن خان اليهود العهد بتعديهم على المسلمين وبمناصرتهم للمشركين في غزوة الخندق، فحق عليهم «الجلاء» عن المدينة كما جاء في مقدمة سورة الحشر:

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ \* هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِينِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَتْهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا \* وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَكُمُ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ النَّارِ \* ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ \* مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَحْطَمْتُمْهَا فَأَمَّا عَلَى أَسْوَأِهَا فَيَاذَنَ اللَّهُ وَلِيُخْرِجَ الْفَاسِقِينَ \* وَمَا آفَاةُ اللَّهِ عَلَى



رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿عَشْر: ١-٦﴾.

هنا إجلاء مقترن بـ «بداية حشر» (أول الحشر) وأول الحشر هنا لا يرتبط بالحشر الأخرى بل بالجللاء في الدنيا عن موقع إلى موقع آخر (ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا). وهكذا اتجه بنو قَيْنُقَاع وبنو قُرَيْظَةَ وبنو النضير إلى أذرعات باتجاه الشام شمالاً.

قد استصفى خاتم النبيين كما قلنا «قاعدة مجتمع الدعوة» من كل أنواع الشرك والتهود والتنصر، وقد أعلم الله - سبحانه - المشركين واليهود والنصارى - بالذات - في بداية تلك المرحلة التأسيسية للعالمية الشاملة أنه لا يجتمع في جزيرة العرب دينان توطنة لظهور الهدى ودين الحق عالمياً. لهذا نجد أن آيات الظهور العالمي للدين ترتبط بتوجه مباشر للمشركون واليهود والنصارى في سور التوبة والفتح والصف وهكذا كان:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَءُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ \* قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَبَيِّنُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ \* وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْنَاهُمْ اللَّهُ أَفَنُفُكُونَ \* اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْكَبًا بَيْنَ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ \* يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُنِيرَهُ وَلَوْ كَرِهَ



الْكُفْرُونَ \* هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ

كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿[الأنعام: ٢٨-٣٣]

ثم في سورة الفتح: (٢٧ - ٢٨)

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّسُلَ بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ

رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا \* هُوَ

الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿

[الفتح: ٢٧-٢٨]

ثم في سورة الصف

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَنْقُورُ لِمَ تَقُولُونَ لِمَ تَقُولُونَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَنَّا زَاغُوا

زَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ \* وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ

إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ الْوَحْيِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولِي يَأْتِي مِنْ بَعْدِي أُمَّةٌ قَدْ جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا

سِحْرٌ شَيْنٌ \* وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

الظَّالِمِينَ \* يُرِيدُونَ لِيُظْفَرُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُنِمْ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ \* هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ

رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿[الصف: ٥-٩]

في جزيرة العرب تحقق إظهار الإسلام على الشرك والتهود والت نصر، وتأمنت قاعدة

«مجتمع الدعوة» التي منها ينطلق الإسلام ليستوعب بالدعوة تلك الشعوب الأمية

الأخرى - غير الكتابية - التي قرر الله في سورة الجمعة التحاقها بالأميين العرب:

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِلَّذِينَ الْأَقْدُسِ الرَّحِيمِ لَمْ يَكُنْ لَهُ يَأْتِي بِعَثَ فِي

الْأَيَّامِ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَزَكَاةً مِنْهُمْ وَرَبُّهُمْ الْكَتَبَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَيْ

ضَلَّ كُلِّ مُبِينٍ \* وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لِمَا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ \* ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ

يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿[الجمعة: ١-٤]

أما خارج جزيرة العرب فقد جعل الله العلاقة بين المسلمين وغيرهم علاقة «تدافع»:



﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِنَتِ صَلَاحٌ وَرِيعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَيَسْمُرُونَ اللَّهُ مِنْ يَنْصُرُهُ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ الْأُمُورِ ﴿٤٢﴾﴾ [هَج: ٤٠-٤١].

غير أن هذا التدافع يخضع لأشكال مختلفة تبعاً لمتغيرات الزمان والمكان، فهناك دفع بالتى هي أحسن:

﴿وَلَا تَسْأَلِ الْحَسَنَةَ وَلَا السَّيِّئَةَ اَدْفَعْ بِالْاَيِّ هِيَ اَحْسَنُ فَاِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَانَهُ وَلِيًّا حَسِبُهُ﴾ [فصلت: ٢٣].

وهناك تدافع تستمر صراعاته لأنه مبنيّ على التناقض، كالتدافع بين المسلمين واليهود وهذا ما قرّرت سورة الإسراء، وأوضحت بداياته سورة الحشر، ففي الإسراء يقول المولى سبحانه وتعالى:

﴿وَقَصَبْنَا لَكَ بَيْتَ إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَنَعْلُنَ عُلُوًّا كَبِيرًا \* فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا \* ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِيٍّ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا \* إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيُسْوَا أَوْجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَبِيرًا \* عَسَىٰ زُكْرًا أَنْ يَرْحَمَكُمُ وَإِنَّ عُذْرَكُمْ عِنْدَنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿ [الإسراء: ٨-١٠]

قد فسّرت هذه الآيات من قبل بالإشارة إلى ما مضى من تدافع بين بني إسرائيل ونبوخذنصر الذي جاس خلال ديارهم وسباهم في فترة ما قبل الميلاد. غير أن التحديد القرآني لصفة من جاسوا خلال الديار الإسرائيلية بأنهم «عباد لنا» بما يعني انتساب أولئك إلى عقيدة التوحيد باعتبارهم يعبدون الله - فهم عباده - تنفي إلقاء الوصف على قوم نبوخذنصر الوثنيين، ومن هنا يتجه البحث إلى مؤمنين، موحدّين، يعبدون الله



الواحد الأحد، فهم الذين جاسوا خلال الديار، وليس في التاريخ من قوم مؤمنين جاسوا في ديار يقطنها الإسرائيليون قبل المسلمين.

ذلك من ناحية البحث التاريخي. أما من ناحية نصية فنجد القرآن يشير في مطلع سورة الحشر إلى تغلب المسلمين في المدينة المنورة (يُثْرِب) على قبائل من بني إسرائيل ومنهم بنو قَيْنِقَاع، الذين أجلوا عنها واتجهوا شمالاً صوب أذْرِعَات، وبنو قُرَيْظَةَ وكذلك بنو النضير كما أوضحنا.

كان ذلك أول حشر لبني إسرائيل باتجاه الأرض المقدسة من أرجاء يَثْرِب (المدينة المنورة)، حيث جاس المسلمون في ديارهم ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَكَبْتُمْ هِيَ فَأَلَمَتْهُ عَلَىٰ أَصُولِهَا فَأَبَازَنَ اللَّهُ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾.

تلك مرحلة «وعد أولاهما» بادئة بالمسلمين الذين أجلوا اليهود، وقذفوا بهم إلى الأرض المقدسة لأول الحشر.

ثم تأتي مرحلة ثانية يتغلب فيها بنو إسرائيل على الذين أجلوهم لأول الحشر:

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾

[الإسراء: ٦].

والمدد استعانة بما في الخارج، أموالاً أو بنين، وأكثر نفيراً تشير إلى التركيز واستخدام أقصى الطاقات والفعاليات. وهذه هي مواصفات ما هو حادث بعد أربعة عشر قرناً من إجلائهم أرجاء المدينة.

هيجرات وهيجرات، وهيبات ومعونات، وتركز عرفناه في حروب متتابعة، والموجات البشرية تندفق من أرجاء الأرض مصداقاً للآية في سورة الإسراء - آية الوعد الثاني - فقد قال الله لبني إسرائيل من بعد خروجهم من مصر مع موسى أن يسكنوا الأرض المقدسة، ثم في فترة تالية سيأتي بهم لفيماً إلى الأرض نفسها وبما يشير ضمناً إلى خروجهم منها:



﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء: ١٠٤].

قد جاء وعد الآخرة - الوعد الثاني - الذي يتضمن وعدين في آن واحد: وعد لبني إسرائيل بالعودة ووعد للمؤمنين بالنصر عليهم:

﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّكُوا مَا عَلُوا النَّبِيرَا﴾ [الإسراء: ٧].

ويتلخص السياق التاريخي التدافعي في الآتي:

- ١ - إجلاء لقبائل بني إسرائيل عن المدينة المنورة باتجاه الأرض المقدسة مقدّمة لحشرهم فيها إيداناً بانتصار عباد الله المسلمين. وكان ذلك (وعداً مفعولاً) تمّ قبل أربعة عشر قرناً كإنهاء لمرحلة الإفساد الأول: (لتفسيدنّ في الأرض مرتّين).
- ٢ - ثمّ جيء بهم لفيافاً من أنحاء الأرض، وأمدّوا بأموال وبنين وجُعِلوا أكثر نفيراً، فردّوا الكرة على المؤمنين، وذلك ما يحدث منذ نهاية القرن الرابع عشر الهجري وبداية القرن الخامس عشر.

٣ - ثمّ يجيء وعد الآخرة - المرة الثانية بعد لإفسادهم الثاني: (لتفسيدنّ في الأرض مرتّين) فتتحقّق الغلبة للمؤمنين عليهم وقد أتاح الله فرص أن يحسنوا وأن يثوبوا إلى رشدهم. ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧]. ثمّ أبدى الله - في هذا السياق الزماني الدنيوي لوعد الآخرة - احتمالات الرحمة مع التشديد على العقاب إن عادوا للإفساد: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمُ ۖ وَإِنْ يُعَذِّبْكُمُ عَذَابًا ۖ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ ۖ لَئِذَا كُنْتُمْ بِهِمْ حَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٨]. وهكذا ينتهي وعد الآخرة - وعد المرة الثانية - إلى مزيد من التدافع بين العرب والإسرائيليين بداية بتسوية الوجوه ودخول الأرض المقدسة عليهم وتبوير ما علوا تببيراً.

من خلال هذه الآيات نضع أيدينا على جانب من الطرح المستقبلي في القرآن ضمن مؤشّرات «التدافع بين دينين رئيسيين أو قوميتين رئيسيتين»، وذلك بالرغم من



تباين واختلاف تصوّر كل منهما لحقه في الأرض المقدسة. فاليهود إذ يطرحون الأمر من زاوية الادّعاء «التاريخي»، يطرح العرب الأمر من زاوية الحق «القومي»، أو الاثنين معاً في كلتا الحالتين. ومن هنا تثير الكتابات المعاصرة قضايا خلافية عديدة تتناول - في ما تتناول - مصداقية الانتساب «الصهيوني» الراهن إلى العِرْق الإسرائيلي التاريخي ومدى نقائه، كما تثار قضايا حول نوعية وكيفية الروابط القائمة بين الكيان الصهيوني والقوى العالمية منذ نشوء عصر الاستعمار. وبغضّ النظر عن هذه الجوانب الخلافية وتأويلاتها تبقى الحقيقة حول «التدافع» قائمة.

#### خلاصة أساسية

إذن لا يجتمع دينان في جزيرة العرب حيث «مجتمع الدعوة» و«قاعدة الانطلاق العالمي»، ثم يكون من بعد «التدافع» بأشكال مختلفة، ولكنه - أي هذا التدافع - يكتسب جانب «الصراع التناقضي» مع الإسرائيليين خاصة ولكن ليس مع غيرهم. إن الصراع مع الكيان الصهيوني أمر لا يمكن العرب بالذات أن يلغوه أو يناوروا عليه ولو أرادوا، وذلك لأسباب ترجع إلى طبيعة بني إسرائيل وموقفهم من الآخرين، فهم لا يكتفون بنصب أنفسهم أوصياء على كلمات الله، بل يزيّفون التوراة ويعمدون إلى تزييف الديانات الأخرى التي يتفضل الله بها على الناس:

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَأَنُومٌ مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْهِمُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَمَسَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ \* يَسْأَلُكُمْ أَتُورَا بِهِمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَعَثْنَا أَنْ نُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ قَبْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْبَاءً وَنُفِثَ عَلَى عَصَى وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ \* وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَزُومُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَبِكُفْرُوتِ يَسَاءَ وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ قَلِمٌ نَقْلُونَ الْبَيِّنَاتِ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨٩-٩١].



إنّ التدافع الصراعي التناقضي مع بني إسرائيل قائم ويقوم بكل الوسائل، أما ما عداه من تدافع فيتخذ أشكالاً أخرى، أهمّها الدفع الحسن والحوار والمجادلة الحسنة. في هذا الإطار تؤسّس علاقة المسلم بالغير، في داخل مجتمعه (إن كان تعددياً) وفي خارج مجتمعه، على تَبَيّن نمط محدّد من أنماط الخطاب الإلهي للبشرية، فالله - سبحانه - لم يجعل خطابه للناس مقيّداً إلى حالة أحادية واحدة لا تستجيب لأوضاع المجتمعات المختلفة. فهناك مجتمعات يشارك فيها المسلم المسيحيّ أو الوثني «حق المواطنة» ولو كانت الغلبة للمسلمين، فيعتمد بعض المسلمين - بحكم غالبيتهم - للمناداة بتطبيق «الشريعة الإسلامية» على ضوء فهمهم لها وقياماً - منهم - كما يظنون بتطبيق «حكم الله» الذي أمروا به. وفي أحسن الأحوال يلجأون إلى تمييز أنفسهم بكيان «منفصل» عن الغير، كما فعل مسلمو باكستان حين انفصلوا عن الهند، وكما يفعل آخرون حين يطرحون «الفدرالية» على الغير.

تكمن الإشكالية هنا في عدم قدرة هؤلاء على اكتشاف منطق القرآن في معالجة التعددية، فالقرآن لا يطلب من المسلم الانفصال عن غيره في مجتمعه، ولا يطلب منه في الوقت ذاته أن يتخلى عن منهج حياته إسلامياً، وليس المقصود بالغير هنا مجرد أن يكون مسيحياً أو وثنياً، إذ يمكن أن يكون هذا الغير «علمانياً» لا يرفض الدين، ولكنه لا يتقبل مفهوم السلطة الدينية بمعناه الثيوقراطي.

قد عدّد الله - سبحانه - الخطاب للبشرية ضمن التوجّه إلى مرحلة «حاكمية البشر»، وذلك بأن ميّز بين خطاب «عام» يتجه إلى كل «الناس» بوصفهم بشرأ يعيشون أوضاعاً مختلفة، فيها التعدد الديني واختلاف المِلَل، وبين خطاب يتجه إلى «المؤمنين» وخطاب يتجه إلى «المسلمين».

ولزم لكل نوع من أنواع هذا الخطاب شرائع. فشرائع «الإيمان» كما أوضحنا في تجربة «الحاكمية الإلهية» تربط بين خارق العقاب، وقد بحثنا في خلفيات ذلك. أما



شرائع «الإسلام» - الذي هو أرقى من الإيمان كما أوضحنا - فترتبط «بالشرعة المخففة والرحمة». وأما شرائع «الناس» فإنها ترتبط بالفطرة السوية العامة وبالحدود الدنيا للتشريع الذي تتوافق عليه العقول البشرية أينما كانت في هذا العالم. فالقرآن إذ يُعد مرجعية فكرية كونية «الوعي الموضوعي المعادل للوجود والحركة الكونية» فإنه يتضمن أشكالاً متعددة من الخطاب الإلهي الذي يستجيب لحالات التكوين البشري المتنوعة، سواء تم ذلك في إطار الأحادية أو التعدد. ويمكن بحث هذا الأمر إذا حللنا «خطبة الوداع» التي ألقاها الرسول - الخاتم الموقر - من على جبل عرفات وهي الخطبة المتزامنة مع آية اكتمال التنزيل القرآني:

﴿أَيُّوْمَ أَكَلْتُ لَكُمْ دِيْنَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيْنًا﴾ [الفائدة: ٣].

إذ تجدر الإشارة هنا إلى أن الرسول، مع اكتمال التنزيل المتضمن لكل الشرائع والحدود الذي يشمل كل أنواع الخطاب الإلهي للمؤمنين وللمسلمين، لم يستخدم سوى الخطاب الإنساني، بادئاً بـ «يا أيها الناس» ومختتماً بـ «يا أيها الناس»، ولم يأت على تشريعات أو حدود.

وقد تركّز جوهر الخطاب الرسولي على انتساب الناس كافة إلى آدم، وانتساب آدم إلى التراب «أيها الناس: كلُّكم لآدم وآدم من تراب». فخاطب في البشرية انتماءها التكويني إلى أصل واحد، أي الانتماء الخلقي الذي يلغي أشكال التمايز الأخرى، عنصرية كانت أو اجتماعية. ثم ربط الخطاب بالمبادئ المشتركة للتعايش البشري مؤكداً حرمة الأنفس والأموال: «إن أموالكم ودماءكم عليكم حرام»، وموجّهاً إلى الضوابط العائلية وحقوق المرأة، ومحرضاً على منع الربا الذي يعني تركيز الثروة واستلاب فوائض قيمة عمل الآخرين.

لم يزد الرسول على هذه المبادئ الإنسانية العامة المشتركة لكل البشرية، وهو يملك وقتها حصيلة التنزيل القرآني كله، ولم يستخدم غير عبارة «أيها الناس». فهل



يمكن البشرية اليوم أن تختلف على هذه الأسس العامة؟ فإذا قُدِّر للخلاف أن ينشأ حول ممارسة الربا فإن بعض أكثر الناس إحاداً يتنادون باسم الاشتراكية لمنع الممارسات الربوية.

قد جهل قادة الحركات الدينية أصول الخطاب القرآني الذي يميز بين الناس والمؤمنين والمسلمين، كما جهلوا الخطاب الإلهي التاريخي الذي يميّز بين حالات الأمم وتشريعاتها، فطبّقوا على المسلمين تشريعات التوراتيين التي تقوم على المماثلة بين خارق العطاء «كشقّ البحر» وخارق العقاب، كما زرعوا المفهوم التوراتي حول «التكفير» داخل المفهوم الإسلامي القائم على التطهير، وحوّلوا عالمية الإسلام إلى مجتمعات الانغلاق التلمودي غير القابلة للتعايش مع غيرها برمي الآخرين بـ«الجاهلية».

إن الإسلام بحاجة إلى إعادة قراءة جديدة تستمد من مرجعية القرآن الكونية، ويتوظف معرفي للمناهج العلمية المعاصرة مع نقد هذه المناهج وتقويمها. فهناك ما يجب التعرف عليه من خلال القرآن، منذ أن تدرّج الله - سبحانه - في مخاطبة البشر من العائلية الآدمية، إلى القبلية الإسرائيلية، وإلى الأمية العربية، فإلى الشمولية العالمية. ومنذ أن ميّز الله بين خطابه للناس وخطابه للمؤمنين وخطابه للمسلمين وجعل لكل خطاب خصائصه.

إن المطلوب، بإلحاح، من قادة الحركات الدينية، سواء أكانوا في سدة السلطة، أم كانوا يتطلعون إليها، أن يتبسّروا من جديد في منهجية القرآن ليكتشفوا أن هذا الدين مستوعب للحالات البشرية المختلفة، وعبر أنواع من الخطاب الإلهي المستجيب للبشرية في تعدديتها الدينية والثقافية وفي أحاديثها في الوقت ذاته. فالخطاب الإلهي (للناس) هو الخطاب المستجيب للتعددية وللتنوع الثقافي تماماً كاستجابة القرآن لكل مناهج المعرفة وحقول الثقافات البشرية المتنوعة. فهو (دين عالمي) متنزّل على بيئات



إنسانية مختلفة، فيه الحد الأدنى من الخطاب وفيه الحد الأعلى. فالإسلام لم ينزل ليفرق بين الناس ويمزق العلاقات الداخلية للمجتمعات.

إن فشل قادة الحركات الدينية في التعايش - الذي يقرّه الإسلام - مع تعددية المجتمع الدينية وتنوع حالاته الثقافية وتياراته، وادعاء منطق الحاكمية الإلهية والاستخلاف، قد شوّه مفاهيم الدين وأوجد حالة من الانفصام ما بين المسلم ودينه من جهة، حين لا يتقبل المسلم حالات التعصب والمغالاة والادعاء والفرقة والتناقد وإسقاط حقوق الغير، كما أوجد حالة من الانفصام بين المسلم ومجتمعه من جهة أخرى حين يقبل بهذه المقولات الزائفة على علاتها ظناً منه أنها من صلب دينه.

إن هذه الخيارات الزائفة والمستندة إلى فهم ديني خاطئ، والتي تأخذ بها حركات (الصحة) الآن، تتعارض كلياً مع منهجية القرآن وخصائص عالمية الرسالة ومفهوم الإسلام للحاكمية البشرية، وتعدد أنماط الخطاب الإلهي للناس وللمؤمنين وللمسلمين.

إن أولى خطواتنا - بإذن الله - على طريق (الهدى والدين الحق)، أن نستجيب لأوضاع مجتمعاتنا بمنطق الخطاب الإلهي للناس، الذي يشمل تشريعات الحد الأدنى التي أوضحها الرسول الخاتم في خطبة الوداع، والتي لا تخضع في تحقيق سندها لاجتهادات الرواة، فهي خطبة كانت على الملأ وفي عرفات المبارك، وكانت تنتهي بـ «اللهم هل بلغت... اللهم فاشهد». ذلك هو الحد الأدنى في ما تستطيع ممارسته «الحاكمية البشرية»، ضمن استيعابها لمنهجية القرآن وقدراتها على حرية التصرف، وضمن تفاعلها مع المجتمعات الراهنة، على أمل الوصول بها تدريجاً إلى التعلق بكلمات الله التامات، فالدين ليس فلسفة «دغمائية» لا تستجيب لأوضاع الإنسان، فإن كان علينا أن نتخذ برنامجاً في الظروف الراهنة، فإن الأمر لن يتعدى مضمون خطبة الوداع.



## الحاكمية البشرية والخطاب الثلاثي

ليس في ما قلته تثبيط للهمم الدينية دون بلوغ (المثال)، ولكن كيف يدرك هذا المثال دون أن يستدرك (المنهج)، ودون أن تفهم الكيفية التي خاطب الله بها البشر، متدرجاً من الحالة العائلية إلى الظهور العالمي للدين؟ ودون أن ندرك تنوع الخطاب الإلهي المستجيب لحالات الناس جميعاً؟ ودون أن ندرك موقع الصيرورة والمتغيرات التاريخية والاجتماعية ضمن منهجية المعرفة القرآنية؟ ودون أن نميز بين الحاكمية الإلهية وحاكمية الاستخلاف وحاكمية البشر؟ فنفرض أنفسنا أوصياء على الدين وعلى الناس بعصبية دينية تراثية.

إن كل آيات التبشير الإلهي بظهور الإسلام على الدين كله، فيما عرضناه من سور: التوبة، الفتح، والصف، إنما تشير إلى الإسلام منهجاً (للهدى ودين الحق)، وإلى هذه المنهجية يجب أن تتجه قلوبنا وعقولنا.

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل...

محمد أبو القاسم حاج حمد







## فهرس الأعلام

### -أ-

آدم (النبي) ٢٤، ٥٤، ٥٥، ١٠٥، ١٤٠

آل فرعون ٥٧

إبراهيم (النبي) ٣٣

ابن جني ١٨

ابن خلدون ١٩

أبو نايب، دينا الأمين ١٣

أحمس (الملك) ٣٣

أركون، محمد ١١، ٩٧، ٩٩

إسحق ٣٣

أشبنغلر ١٢٣

### -ب-

بنو إسرائيل ٧، ٨، ٣٣، ٣٥، ٤٦، ٥٣،

٨٩، ٩٠، ٩٤، ٩٥، ١١٣، ١٣٦،

١٣٩، ١٣٧

### -ج-

الجابري، محمد عايد ٩٧، ٩٩

جعفر، هشام أحمد عوض ٢٩

### -ح-

حاج حمد، محمد أبو القاسم ٧، ٩، ١١،

١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ٢٢، ٢٥،

١٤٣

### -د-

داود ٣٤، ٦٣، ٦٤، ١٠٥

دو سوسير ١٩

### -س-

سليمان ٣٤، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٦٧، ٦٨،

١٠٥

### -ش-

شحرور، محمد ٩، ١١، ١٢، ١٣،

٢٥

شمس الدين، محمد مهدي (الإمام) ١٣

### -ع-

العاني، محمد ٢٥



## الحاكمية

|                             |                                 |
|-----------------------------|---------------------------------|
| عبد الجليل، منقور ١٩        | معلوم، حسين ٢٩                  |
| علي بن ابي طالب (الإمام) ٣٠ | المودودي، أبو الأعلى ٢٨، ٤٢، ٤٥ |
| عمارة، محمد ٢٩، ٤٢، ٤٤      | موسى (النبي) ٨، ١٧، ٣٣، ٤٦، ٥٠  |
| عيسى (النبي) ٨، ٢٤، ٧٦، ٧٧  | ٧٤، ٩٠                          |

### - ف -

فاطمة، بنت الرسول ٩٤  
فرعون ٨

### - ن -

نوح (النبي) ٢٤

### - ق -

قطب، سيد ٢٨

### - ي -

يعقوب (النبي) ٣٣  
يوسف (النبي) ٣٣

### - م -

محمد (النبي) ٩، ٧٦، ٨٩، ٩١، ٩٣



## فهرس المصطلحات

|                                  |                                     |
|----------------------------------|-------------------------------------|
| الاجتهاد ٦٧                      | حاكمة الاستخلاف ٣٤، ٥٥، ٥٧، ٥٨،     |
| الإرادة الإلهية ٢٤، ٩٩           | ٦٤، ٦٨، ٧١، ٧٢، ٧٧، ٧٨، ٨٥، ٨٦،     |
| الإرادة الإنسانية ١٠٤            | ٩٠، ٩٣، ١٠٠، ١١٢، ١٤٣               |
| الإسلام ٤٣، ٧٤، ٧٥، ٨٧، ٨٨، ١٢٤، | الحاكمية الإلهية ٧، ٩، ١٧، ٢٤، ٢٧،  |
| ١٢٥، ١٣٤، ١٤٠، ١٤٢، ١٤٣          | ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٩،     |
| الاشتراكية ١٤١                   | ٤١، ٤٢، ٤٥، ٤٨، ٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٥،     |
| الأصولية السلفية ١٨              | ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٦٣، ٧١، ٧٢، ٧٧، ٧٨،     |
| الأعراف ١١٧                      | ٨٥، ٩٠، ٩١، ٩٣، ١٠٠، ١١٢، ١٣١،      |
| الألوهية ٧                       | ١٤٣                                 |
| التأويل ١٨، ١١٨، ١٢٠، ١٢١        | حاكمة الإنسان ٧١، ٧٧                |
| التاريخ البشري ٨٧                | الحاكمية البشرية ٩، ٢٤، ٣٤، ٣٥، ٦٨، |
| التحريم ٨٠                       | ٦٩، ٧١، ٧٢، ٧٧، ٧٨، ٨٥، ٩٢، ٩٦،     |
| التحليل ٣١                       | ٩٩، ١٠٠، ١١٣، ١٢٨، ١٣٢، ١٤٢         |
| التحديد الديني ١١٨               | الحاكمية الدنيوية ٤٤                |
| التشريعات الدينية ٣٢             | الحاكمية الوضعية ٣٩                 |
| التطور البشري ٨٨                 | الحتمية المادية ٢٨                  |
| التنزيل الحكيم ٧، ٨٠، ١٢٦، ١٤٠   | الحركات الإسلامية ٤٠، ٤١،           |
| التيوقراطية ٤٤                   | الحركات الأصولية ٢٨                 |
| الجاهلية ١٤١                     | الحواريون ٨                         |
| الجبرية ٢٧، ٢٨، ٣١، ٣٢، ٤٤       | الخطاب الإلهي ٥٤، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١،    |
| جدلية التكوين ٣١                 | ١٤٣                                 |



- الخطاب القرآني ١٤١  
الخلافة البشرية ٤٢  
الخوارج ٢٩  
الدولة الإسلامية ٩٧  
الربوبية ٧، ١٠٦  
الزواج الاجتماعي ١١١  
زواج المتعة ١١١  
الشريعة الإسلامية ٧  
الشريعة الموسوية ٨  
الشورى الإسلامية ١٠٥  
العائلية ٢٤  
العالمية ٢٤  
العبودية ٩٧  
العقل الإحيائي ٢٤  
العقل الإنساني ١٢٠  
العلمانية ٢٨  
علوم التفكيك ٣١  
الفكر اللاهوتي ٢٧  
الفكر الوضعي ٢٧  
القانون الإلهي ٤٤  
القبلية ٢٤  
القرآن الكريم ١١، ١٢، ١٤، ١٥، ١٦،  
١٧، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٨،  
٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٥، ٤٥، ٤٩، ٥١، ٥٢،  
٧١، ٧٣، ٧٤، ٩١، ٩٦، ٩٧، ٩٨، ١٠٥،  
١٠٧، ١١٢، ١١٣، ١٢٠، ١٢٥، ١٢٦،  
١٣١، ١٣٩، ١٤٢  
الكيان الصهيوني ١٣٨  
اللاهوت الجبري ٣٥، ١١٨، ١١٩  
الماركسية ١١٨، ١١٩  
المثالية الإنسانية ١١٣  
المجتمع الجاهلي ٤٠  
مجلس الشورى ٩٦  
مركز دراسات العالم الإسلامي (طرابلس  
الغرب) ٤٢  
المساكنة الشرعية ١٠٨  
المساكنة غير الشرعية ١٠٩  
المسلمون ٣٤، ٣٥، ٤٣، ٤٦، ٤٩، ٥٨،  
٧٥، ٩٢، ٩٤، ١٠٤، ١٢٤، ١٣٢، ١٣٤،  
١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٩، ١٤٠  
المشروعية الإلهية ٤٠  
مشروعية الغيبة ١١٨  
معركة بدر ٥٩  
منهجية القرآن ١١٣، ١١٧  
مؤسسة الدراسات الفكرية المعاصرة ٧، ١٣  
النبوة ١٧، ٢٤، ٧٤، ٨٠، ٨٦، ١٢١،  
١٢٢  
النزوع الكوني ١٢٠  
النظرية النسبية ٣١  
النكاح - الزواج ١٠٨  
النهج العلماني ٤٠  
الوحي الإلهي ٢١  
الوعي الإنساني ٢٥، ١١٧  
اليهود ٤١، ٥١، ٧١، ١٣٢، ١٣٥



تذهب بعض الحركات الإسلامية المتطرفة بمفهوم «الحاكمية الإلهية» إلى حدّ الغلوّ والتعسف، فتسبغ على نفسها «مشروعية التصرف» باسم الله وحاكميته، وممضي بعيداً في تكفير من لا يوافقها الرأي والنهج.

ولأن الأمر لا يخلو من تأويل مستمدّ من بعض آيات القرآن الكريم، يعتمد المؤلف إلى استقراء المنهجية المعرفيّة القرآنية في هذا المجال درءاً لكل سوء تفسير أو تحريف. ويخلص إلى أن ثمة ثلاثة أنماط من الحاكمية:

الحاكميّة الإلهية، وقد مورست على بني إسرائيل خاصّة منذ إخراجهم من الأسر الفرعوني. وهي ليست لنا.

الحاكمية الاستخلافية، وكانت في بني إسرائيل أيضاً على عهد داود وسليمان. وهي ليست لنا.

الحاكمية البشرية، وهي أخطر مرحلة تناولها الخطاب الإلهي للبشرية، وانتهى إلى تأسيسها على يد خاتم النبيين وجعل لها القرآن منهجاً. وبها مثل الإسلام عالمية خطاب، وعالمية كتاب، وشرعة تخفيف ورحمة.

محمد أبو القاسم حاج حمد كاتب سوداني. لعب أدواراً سياسية في كل من السودان وإرتريا منذ الستينيات. عمل مستشاراً علمياً لـ «المعهد العالمي للفكر الإسلامي» في واشنطن. أسّس عام ١٩٨٢ «مركز الإنماء الثقافي» في أبو ظبي وأقام أولى معارض الكتاب العربي المعاصر بالتعاون مع العديد من دور النشر اللبنانية.